MAIS KHALID AL-OTHMAN

رواية
NOVEL

ميس خالد العثمان

عرائس الصوف

الرواية الفائزة بجائزة ليلى العثمان للإبداع السردي لعام 2006

fb/mashro3pdf

عرائس الصوف

fb/mashro3pdf

عرائس الصوف / رواية عربيّة
ميس خالد العثمان / مؤلّفة من الكويت
الطبعة الثانية ، 2007
حقوق الطبع محفوظة

المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص. ب 5460-11
هاتفاكس 751438 / 752308 1 00961
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص. ب 9157 ، هاتف 5605432 6 00962 ، هاتفاكس 5685501 6 00962
e-mail : info@airpbooks.com.
موقع الدار الإلكترونيّ : www.airpbooks.com
تصميم الغلاف والإشراف الفنّي :
®
خطوط الغلاف : **زهير أبو شايب / الأردنّ**
الصفّ الضوئيّ : **المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر / بيروت ، لبنان**
التنفيذالطباعيّ : **مصطفى قانصو للطباعة والتجارة / بيروت ، لبنان**

a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة . لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه ، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات ، أونقله بأيّ شكل من الأشكال ، دون إذن مسبق من الناشر.
ISBN 978-9953-36-157-6

fb/mashro3pdf

NOVEL

ميس خالد العثمان

عرائس الصوف

الرواية الفائزة بجائزة ليلى العثمان للإبداع السرديّ لعام 2006

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

ما قبل الإهداء

وَحين تَغيبُ
يُلَمْلِمُ حُزني أطرافَهُ نافذًا
ويغرقُ فيَّ ويندَاحُ حيْنَ تجيءْ
فأَغْرَقُ فيه
أَلا برزخٌ بينَ هذا وذاكَ نمارسُ لا حُزْنَنَا على جانِبيهْ؟

سعدية مفرح

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

الاهداء

إلى عمتي «عَزيزة» ، المعمّدة بالبهاء ، المنسوجة
من بياض . . .
تترقبين جنوني دوما بفرحِ أُمْ ، رغم أنكِ تدركين
كم لذيذ وشائك صوتُ الكتابةِ!

ميس

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

شباك مفتوح الصدر

كنا نلعب سويا ، يلقبوننا بـ «البيضة والسودة» وكنت أحزنُ لأجلها !

«دليلة» ، تربّت معي ، بل إنها وُلدَتْ بعدي بشهرين ، نتقارب طولاً وعمرًا ، لكننا حين كبرنا ، أثمر جسدها سريعا ، فصارت مفاتن الأنوثة تعلن عن نفسها ، بحيث جعلت الرجال يفوحون رغبة .

حتى إن سمرتها باتت مثيرة أكثر من بياضي الكالح ، ربما!

فيما بقيت أنا أبحث عن أنوثتي المتأخرة في المرايا ، فما عثرت إلا على ضمورٍ هادئٍ ، وشباب خجلٍ طال انتظاره . . فقد سبقتني هي .

تعلقتُ بها كثيرًا . .

كانت النافذة الوحيدة التي أطللت منها على الحياة ، كانت أكثر جرأةً مني ربما لأن أمها من ربتنا سويا .

ماتت والدتي مع صرختي الأولى ، وولدت «دليلة» يتيمة هي الأخرى بعدي بشهرين ، تزوج أبي من «عوجة» الصانعة ليضمن

fb/mashro3pdf

بقاءها في البيت تخدمنا وتربينا بعد أن أحاطنا اليتم ، لقد أعطتنا الحياة امتيازًا مؤلمًا . .

«دليلة» بفقدها لوالدها وهي ببطن «عوجة» ، وأنا مع شهقتي وبرجل ناقصة ، لفظتني أمي مستعجلةً الرحيل .

كبرنا معا ، وحملنا خوفنا من المجهول سويا ، وكانت «دليلة» هي الأقوى والأكثر اندفاعا وذكاء وإثارة !

بعد كل ظهيرة في سنوات مراهقتنا ، كنا نتقافز على سطح بيتنا الطيني العتيق بحرارة الطقس اللاهبة أو برودة الشتاء القارس ، نسرق بنظرنا ملمحًا لأطياف أبناء عمومتنا في «البيت الكبير» . .

بيت عمي «مصيوب» كبير وجهاء «النزلة» ، بيته الذي ظل عصيًا علينا لسنوات رغم أنه قِبلةَ المسافرين .

ذات صيف ، ومن شباكهم الواسع الأبرز ، طاردتنا نظراته ، «نذر» ابن عمي «مصيوب» ، وسيما ، يكبرنا بعشرة أعوام ، شاب ، غني ، تشتهيه كل بنات «النزلة» ، تجمدنا بعد أن غمز لنا نصف غمزة ! واحترنا لحظتها :

«لمن أرسلها ؟»

وبرغم تلك الحيرة و سذاجتنا ، سَعِدْنا بها .

fb/mashro3pdf

أترانا أحببنا تلك المداعبة الحميمة رغم براءتها ؟ أم أسعدنا فتح قناة من التواصل مع أبناء عمومتنا إذ منعتنا منهم الحياة ؟

دأبنا على تسلق سياج السطح في الصباح الباكر وبعد كل ظهيرة ، حيث تستغرق «عوجة» بنومها .

الغريب أن «نذر» ماكان يرمقنا بنظراته تلك لو تصادفنا في الحي نلعب مع الفتيات ، لذا كنا ننتظر بشوق المراهقة ، فتنة السطح وغمزاته وابتساماته وإشاراته المرسلة من شباكهم الكبير . . نتقافز بفرح ، نكتم ضحكات نزقة قد تفلتُ منّا ، ونظل نُعيد ما رأينا لمرات ، يختفي هو ولا يبقى لنا سوى فراغٍ في الشباك ونبضٍ مبهمٍ /نزقٍ يملأ قلبينا وألقِ اللحظات الفائتة .

حينها أدركنا أننا صرنا فتاتين جميلتين قادرتين على لفت انتباه شباب الحي ، وزهونا أكثر لأننا فزنا بقلب «نذر» بن مصيوب ، شيخ عشيرتنا القادم !

***

ذات ليل ، هِمتُ سارحة في ملكوت خاص ، كانت عينا «عوجة» تبرقان رغم ظلمة السطح ، يداها تعبثان بشعري بحنان بالغ ، حينما أطلقت سؤالي :

«لم لا نزور بيت عمي» ؟

fb/mashro3pdf

ظلّت تبحلق في اللاشيء دون حراك ، بل أحسستها تترك خصلات شعري لأنها انتقلت إلى غرفة بعيدة ، حيث علا نشيجها وصار صراخًا مكتومًا !

حزنت لأني آذيتها إلى هذا الحد دون أن أعي .

دنوتُ من «دليلة» الممددة بفراشها ، ضممتها إلى صدري وغفوت متأخرة تحوم برأسي التساؤلات دون ترابط معين .

***

دفء شمس الصباح أيقظنا . .

دغدغ النور أجفاننا ، «دليلة» وأنا ، لكزتني لأطرد النعاس ، فتحت عيني على اتساعهما واستقبلتني بضحكة أوسع ، مشيرة بأصابعها ناحية الشباك الكبير . .

كنا نتبارى لتصل إحدانا أسرع إلى سياج السطح ، وغالبا ما تسبقني هي ، بينما أعدل من هيئة شعري المنكوش إثر النوم .

كان «نذر» يشير إلينا بيديه بحركات بقينا نستغربها ، فتخبو الابتسامة رويدا رويدًا عن شفاهنا ، نتبادل علامات التساؤل بسكون ملامحنا الخجلة !

يومها ، سحبتني «دليلة» من يدي ، نزلنا من تعلقنا بالسياج ، ومجتهدة شرَحَتْ لي إشارات «نذر» تلك التي استقبلتها أنا بفتورٍ وَجِلْ ، بينما بدت لي «دليلة» أكبر مني سنا وخبرة وأكثر ذكاء . .

fb/mashro3pdf

لذا ، تقدّم «نذر» لخطبتها !

بنفس صدمتي استقبلت «النزلة» في «جبل الكوم» خبر خطبتهما . .

هاجت نزلتنا ، حيث لا مكان لإخفاء الأسرار ، وما رأيت فرحًا كالذي سكن «عوجة» ، إذ غادرتها كل الأمراض بعد أن شاركتها سنوات من عمرها عنوة .

ولا أدري إن بعُدَتْ عني «دليلة» أم صرت أستشعر ابتعادها لأنه اختارها دونًا عني . .

اختار «دليلة» السمراء المتفتقة أنوثة ، الأكثر إغراء وجرأة ، ولا زلت أتذكر كم تناثر من همس حول زواجهما ، أشياء كثيرة تشبه : «اصطادته عوجة لابنتها السوداء» !

«ظلت تحوم حوله حتى أوقعته ، بتعاويذها وسحرها ، و إلاّ لمَ ترك ابنة عمة البيضاء بأصلها الطيب» ؟!

متناسين أنني أحمل رِجلا ضامرة ودون معنى .

***

بديعة كانت ليلتهما . .

زغاريد ترسل صداها لسطحنا الهادئ ، والنساء وسط حلقات يشملها الترتيب ، رائحة الحناء كانت تتسرب إلى أركان البيت ممزوجة بعبير الريحان والمشموم ، وتبرق الأثواب بزهاوة ألوانها مُضمّخة بالعطور الطيبة ، رنات الخلاخيل والأساور الفضية . .

fb/mashro3pdf

وبدت «دليلة» جميلة جدا/مختلفة .

شعرتها تجاوزتني عمرًا !

نساء «النزلة» خرجن بصدورهن الممتلئة ، بياقات واسعة ووجوه سمراء عذبة ، وعيون عسلية ، ومن خلفهن الصغار بأفواه مفتوحة دهشة ، خراطيش الرصاص تهدر في سواد السماء ، تلون المساء بفرح ما .

انسحبتُ من العرس بهدوء المغفلة ، بعد سيل من كلمات لفظتها الأفواه الكبيرة ، عن «دليلة» وعني !

أشدُّها كان :

«غدا ستملأ له البيت فروخًا سود ، وستُكوى الشيخة «غزوى» حرقة بهذا النسل الفاسد» !

صعدت إلى سطحنا ، كان البيتان متواجهين ، غرف طينية مسقوفة بالخشب الغامق المصفوف ، شجرة حناء كبيرة تُرسلُ شذاها مع النسمات الرطبة فتغرق البيت برائحة الفقد .

من هناك كنت أرقبهن ، يلتهمن اللحم المرصوص على الأرز ، ويتقاسمن الوليمة والحكايات بشغف الجائعات ، يَلُكْنَ الكلمات بعد أن يتلمظن ببقايا الطعام ، إلى أنفي تسربت أدخنة البخور التي غطت على زفارة اللحم المتكوم في الأواني المستديرة الكبيرة .

fb/mashro3pdf

بدأ الركب بالتفرق ، كنت أُدلّي رأسي بحزن بقي يتزايد كما بقي البيت ساكنا ، مظلما ، وانعكاس الأنوار على سياج السطح ذاته ، الذي خطف مني «دليلة» !

صباحا ، سبقتني عوجة إلى الاستيقاظ ، حَمَلَتْ فرشتها ونزلت تسابق درجات السلم ، بقيتُ شبه نائمة أتمطى مبتسمة :

«أم العروسه فاضية ومشغولة . .»

عاودني شوق طازج لتسلق سياج السطح ، كان بيت «دليلة» يقف شامخا قبالتي ، وصرت أتطلع لذلك الشباك الواسع بنصف ابتسامة ، حتى ظهر لي فجأة !

لا أدري إن كانت ابتسامتي قد استطالت أم تلاشت إثر الصدمة ، لكن لحظتها ظهر لي بإشارة من يده يلفت بها انتباهي . . سخونة غريبة شحنتني وتساءلت :

«لمَ ترك عروسه وعاود وقوفه في الشباك الكبير» !

منسحبة نزلت ، تاركة سياج السطح خلفي ودهشتي ، بقلب يخفق هلعا ، استقبلتني رائحة إفطار صباحي شهي ، فقد حضّرت «عوجة» طعامًا مذهلاً يشمله التنسيق ، دقائق وأتانا طرق خفيض على الباب ، فتحت ، كانت «دليلة» مُزهرة تضحك ، ضممتها بحب مضاعف وأخذتني بين يديها بفرح ، شعرتها تحمل معها رائحته !

تذكرت ظهوره المفاجئ على الشباك الكبير ، مشيرا إليَّ بحركته التي فسرتها لي «دليلة» ذات صباح نزق ، فهمتها هي وتزوجته !

fb/mashro3pdf

سحبتها «عوجة» من يديها/ مني إلى غرفة داخلية ، ودار همس خفي لا يظهر منه سوى حدّة السين وضحكات بمعان عميقة ضج بها المكان ، كم تأكّد لحظتها بأن اليُتم اختارني ، لمرة وحيدة شعرت بغربة «عوجة» عني وأنها أم «دليلة» فقط !

باحتضان ثان غادرتنا «دليلة» ، بشقاوتها وعطرها الذي حمل شيئا منه وتسّرب إليّ ، بابتسامة الفرح الطازج توارت وراء الباب الحديدي للبيت الكبير . .

غابت ولم نعد نمارس جنوننا . .

لا تسلقنا للأشجار ، ولا اختباءنا في الصخور الناتئة البعيدة قبيل الغروب ، لن تعود لتشاركني خوفي من حكايات أمنا «عوجة» عن الجن والليل والرعد . . . صرت أرفض الإقدام على ممارسة ذاك العبث الطفولي وحيدة ، دون تحفيز منها على فعل الممنوع الأكثر إمتاعا وبهجة ، ابتعدت عن المغامرة وحيدة منذ تزوجت «دليلة» ، وتركتني منسحبة من حضني إلى حضن «نذر» الذي أخرست أمه الشيخة «غزوى» كل الألسن في مدينة الفضائح والوشايات ، بمباركتها العلنية لارتباطهما ، رغم أنها ما كانت تطمح بتزويجه من ابنه «العوجه» كما تسميها نساء (النزلة)!

لكنها أرادت نسلا للشيخ «مصيوب» ليصير امتدادًا لصيته الرفيع ، بعد خيباته الأربع ، بناته !

fb/mashro3pdf

«مصيوب» الذي كان ، رغم صلابته ، يبقى الليل بطوله يتضرع إلى خالقه كي يهبه الولد ، ليكمل مشيخته فلا تعيبه الأعراب ، هكذا كنا نسمع عنه من القابلة «حسنة» بعد ولادات «غزوى» زوجته . . بعد أن تزف له خبر ولادة «أنثى جديدة» فلا يجود عليها إلا ببصقة على وجهها الأبرص ، ويهرب بعيدا عن النزلة ، يقبع في «الوادي العميق» وحيدا قبل أن يعود لمواجهة الناس ونفسه !

***

في مدينتنا حيث لا سر يستطيع حجب نفسه ، حتى أسرار الفراش كانت متاحة ، أسرار العشق والأحلام المعلقة والوله كلها تلوكها الألسن . . تظل تكبر حتى تذوي وتتلاشى مع انحسار الضوء . . في مدينتنا الضيقة حد الاختناق ، يثرثر أهل «النزلة» ولا يتعبهم تناقل الحكايات الجديدة كل يوم ، محاولين إيقاعنا بفخاخ النميمة المعتادة !

قبيل غروب الشمس قررتُ معاودة جنوني ، قضيت فسحة من الزمن على حافة البئر/بئرنا ، باشرت رمي الأحجار ، مرهفة السمع لهمهمات الأرواح الهائمة ومناجاتها . . رأيته .

تبعت ظله الرشيق بنظري حتى تلاقت أعيننا بوجل ! لا أدري إن كنت نهضت واقفة أم يبست في مكانـــي . .

fb/mashro3pdf

لكن صوته خرج عميقا وواثقا :

«أريدكِ» !

كنت أسمعه ولا أسمعه . . وكنت أرتعش ، حتى إنه مدّ يده ليسحبني/يساعدني على النهوض بعد أن لاحظ ارتباكي ، كان يغمرني إحساس بالقدسية وأنا أنظر في عينيه ، رهبة تعبئ الصدر بما لا يحتمل !

يومها شعرت به يطوقني من جميع جهاتي ، ما كنت أعرف تماما أي إحساس يحمل لي . . لكنني كأنثى كنت على قدر معقول من الفطنة لأميز نظراته وتلاحق أنفاسه ، بل إنه حين أشار إليَّ من شباكه الواسع صباح زواجه ، كنت قد فهمت الرسالة كاملة !

كان هادئا وصلبا في آن واحد . .

جميلا وصارما ومثيرا !

كنت أحدق بفراغ السماء وبداخلي فراغ أوسع !

كنت ألوح بداخلي هامسة باسْمِهِ ، قلقة على لا شيء ربما على حبنا الذي سيكون . .

يا لهذا العالم المرتبك .

وقرأ يومها تساؤلي الذي خرج باردًا :

«و دليلة» ؟!

رَدّه دفعني للابتسام المر :

«لن يأخذني الزواج منك . . أنتِ لي» !

fb/mashro3pdf

لمرة جديدة طرق اسمها باب عقلي . .

«وهي! دليلة ماذا عنها ؟»

ظل مكتوما هذا السؤال ، خشيته يتراجع . .

لأنني أردته أنا الأخرى . . .!

تحت الفانوس فتحت عيني في الظلام ، شعرت أنني على الضفة الأخرى من العالم ، مرتبكة ، حزينة وتائهة . . استحضرت الزمن بشكل استثنائي تلك الليلة .

اشتقت حكايات «عوجة» عن الجن والليل السابح في الزرقة ، اشتقتها تقلب صفحات قديمة من حياة بائسة . لم يخطر ببالي أني كَبُرْت إلا حين سمعت :

«أريدك» !

إلا بعد غمزاته التي ما كنا «دليلة» وأنا نعرف لمن يوجهها .

ما كنا ننتظر شيئا ! أو هكذا كنت أظن . .

كانت أسرع مني فهمًا ، فكان لها .

نُصبَت الخيام والغزلان مذبوحة تنتظر الشواء ورائحة القهوة المحمصة ، كلها نذير لوجود أبي الشيخ «حابس» في (النزلة) ، جاء يبارك زواج «نذر» ابن عمي من «دليلة» ، ثلاث ليال تستمر المباركات يغادر بعدها مواصلاً سفره غير المعلن ، فرحلات أبي «حابس» حدث غير واضح المعالم ، غير مسموح لأي كان تجاوز الحدود والتلميح حتى

fb/mashro3pdf

لمعرفة أكثر مما كان يتاح !

خرجت راكضة أقبّل أبي ، رأيته من بعيد يضم «نذر» إلى صدره بتلقائية أبوية ، ضمني بفرح استغربته وما لاحظ صوتي المختل ، ولا ارتباك الكلمات التي قذفته بها - مرحبة- !

تركنا أبي - لا أدري لمَ- ومضى بعيدا !

وكأن الزمن قد تواطأ مع الأحداث ، جذبني «نذر» إليه بثقة ، أضاف بعد أن شهقت :

«لا تقسي عليّ ولا على نفسك»!

جذبني بعيدًا عن الأعين . .

كنا لصق جدار بيتهم الكبير . . نطقت لمرة أولى . .

«سأحبك بقوة ، وسيغدو حبنا مشكلة لا مثيل لها»

ابتسم بالتماع أسنانه . .

قذف هامسا :

«لا تتعجلي حتى يضاء طريقنا . . قد لا نصل حد العشق ، ولو أني أشعر وكأني على جرف ، وأن أي نبضة جديدة قد تهوي بي إلى القاع» !

ولجت منزلنا مرتعبة . .

صرت وجها لوجه مع «دليلة» ، احتضنتني كأشد ما يكون ، صاحت :

fb/mashro3pdf

«مروانه ! سنكون لبعضنا الليلة ، سنصنع العرائس من بكرات الصوف ، سنعاود شقاوة السطح ، لنر ما يمكن أن نفعل أكثر . .»!

ابتسمت لطيبتها الساذجة ، وددت لو اصرخ بأذنها ، بأن «نذر» لا يستحقها . . .!

سهر الرجال حتى انتصف الليل ، وباتت «دليلة» عندي ، عدنا نلتحف الصوف الذي تصنعه «عوجة» ، اندسسنا في الفراش بعد أن قذفنا بالأحجار على حافة بئرنا قبيل الغروب ، واستمعنا للأرواح الهائمة . . كنت بعيدة عنها وقريبة حد الالتصاق في آن .

ما كنت قادرة على إنكار أن العقل قد يذوب تحت إلحاح فكرة ما ، ظل صوته يطرق باب ضميري بشكل لا يغفره منطق !

***

ساعة متأخرة من ليلة صيفية ، انتثرت بها النجوم بوسع السماء ، كان الصمت يغلف الأشياء بهيبة ، بيوت خفيضة وأخرى مرتفعة بجدران لا تعرف الاستقامة تعبق بالرصانة العتيقة . . مددت إصبعي في الهواء ومستلقية على ظهري ، حولت نظري باتجاه تلك النجمات ، شرعت بالعد . .

صرخت «دليلة» :

«لا ! »

غشاء رقيق من الدمع تكوّر في عيني ، بعد أن فزعت ، تضخم بلعومي ، هل صحيح بأني سأتحوّل إلى أفعى ملساء بنقاط تشتد سوادا

fb/mashro3pdf

كلما اقتربت من الـــ .؟!

نفضت الفكرة من رأسي ، غرست نظري في ضوء مصباحنا المتواري تلفه الحشرات الطنانة ، تنبهت على «دليلة» التي احتضنتني ، قبلتني وابتلعنا النعاس بهدوء تام .

***

على حبال الملابس تحط الطيور متراصة ، أول ما يمكن أن أفتح عينيي عليه من جمال يدهشني كل صباح ، لكزتني «دليلة» من ظهري فور استيقاظي ، سحبتني إلى سياج السطح . . رفعنا كعوبنا متكئين على أمشاط أقدامنا لنتجاوز السطح بقليل ، نرقب (النزلة) بهدوئها أول الفجر ، تستند هي على كتفي ونعاود بفرح الطفولة تتبع مخلفات الطيور ، أوراق الشجر ، وامتداد العشب الذي يأخذنا إلى بيت عمنا الكبير ، هناك ، الشباك الواسع !

لم يكن هناك . .

كان يعلم بمبيت «دليلة» عندي ، رغم ذلك شلّني مجرد التفكير بأن يظهر فجأة بجنونه ، وحركاته المعتادة . . غير أنه لم يفعل !

نزلنا من سياج السطح نتبادل الضحك المكتوم ، جذبتني «دليلة» من ذراعي ، غنّت بصوت فَرِح تحفزني على مشاركتها الرقص ، تناسيت عرجي وفعلت ، شهدت تمايلنا «عوجة» ، صرخت ناهية :

«الرقص فجرا نذير شؤم»!

fb/mashro3pdf

تراكضنا نحوها وبشيء يشبه الاعتذار قبلناها ، فابتسمت لنا بوهن .

كنت اعتدت فعل ما تسبقني إليه «دليلة» ، رغم أني أكبرها بشهرين !

سحبتني من ذراعي وبنزقها همست :

«تعالي ، سأحكي لك عنه»!

شعرت وخزا في بطني قبل أن تكمل :

«آه ، من أين أبدأ ؟ . . سرقني هذا الرجل من سطحنا الموحش يا «مروانة» ، أسكنني فراشًا من حرير ، وطار بي نحو البعيد البعيد ، استسلمت لرجولته التي عرفت كيف تتعامل وأنوثتي . . ، يقول لي : اعشق سُمرتك ! ، ففي ليلتنا الأولى ما ارتوى من تقبيل شفتي و . .»

قاطعتها :

«تحبينه» ؟!

«كثيرا» !!

عصرتني لوعة الغيرة .

كنت أريد سماع المزيد عن «نذر» ابن عمي ، راوغتني بنظرات تستشف شعوري من خلالها ، وفي الحقيقة كانت تُفتّت من نواياي حياله ، أخذني صوتها بعيدا ، وأعادني وخز أصابعها على فخذي ، نبّهَتني :

fb/mashro3pdf

«لأكمل لك . . في ليلتنا الأولى مزّق ثوبي الأبيض ، ربما ما استطاع الانتظار حتى أخلعه . .!»

طرقٌ على الباب قطع كلامها واستدارت نحو الباب بخيبة من تريد إكمال حديثها ، كانت الشيخة «غزوى» في زيارتنا ، ركَضَتْ باتجاهها ، أمطرتها قُبَلاً بتذلل زوجة الابن .

كان الصباح لا يزال طريا ، والكلاب تحوم كعادتها حول أسوار البيوت والمزارع ، والجو ملبد بالهدوء ، فلا شيء يبشر بفرح ولا ينذر بسوء . . كما لا شيء يتغير بوجه الشيخة «غزوى» !

التقطت أذني أوامرها لـ «عوجة» مبطنه بالصرامة ، وخاضعة بقيت أمنا رغم ما وصلت إليه . . أشارت إليها بالدخول إلى غرفه مجاورة ، رمقتني الشيخة «غزوى» بنظرة تفحصت فيها قصر ساقي اليمنى وميلان كتفي قبل أن تدعوها «عوجة» إلى الدخول ، أغلقت الباب بوجهي بعد أن عضّت شفتها السفلى ردا على التصاقي بالباب ، بنظرة آمرة هشّتني بعيدا عنها . . .

انقلبت معدتي ، ونهشتني حرقة ، شعرت بأن قواي قد خارت ، لحقت بي «دليلة» ، ضمتني بحب حتى هدأت .

لم يمض وقت طويل قبل أن تخرج «عوجة» و«غزوى» من خلوتهما ، بوجهين شبه باسمين متفقين ، غادرتنا بغموضها ، فيما هزّت «عوجة» رأسها باستغراب صامت معجون بالتهكم ، تابعنا المشهد بصمت وما تجرأنا على السؤال ، حكّت أنفها غير واعية لوجودنا ، رفعت طرف ثوبها ، أكملت عملها في المطبخ !

fb/mashro3pdf

ثرثرة ودخان

بعد الغداء . .

وبعد أن غادرتنا «دليلة» إلى الضفة الأخرى من الحـي ، صعدت إلى السطح ، تقلبت كثيرا في فرشتي ، غير أن هسيسًا خفيضًا لفتني ، تحركت إلى الجهة البعيدة من سطحنا ، كانت «عوجة» تثرثر مع إحدى الجارات ، وما التقطت أذناي سوى بضع كلمات ربما كانت الأخيرة في حوارهن ، وربما كانت مجرد أحاديث مختلسة من ساعات النهار الطويلة .

حينما لمحتني ، صاحت باسمة ، تنبه الجارة لمجيئي لتنهي حديثا أرادته سرا .

: «هلا بنيّتي» !

بادلتها بابتسامة شك ، كدت أسأل ، لكني تراجعت في لحظة أردتها أخيرة !

بقيت بصمتي ، نهضت لرؤيته ، تعلقت على سياج السطح ، كان واقفا بطوله ، عاريا هذه المرة !

fb/mashro3pdf

خفضت رأسي بسرعة من أخافها المنظر ، تراجعت خطواتي المرتبكة للوراء ، ارتميت في حضن وحدتي ربما لساعات بقلب ينبض خوفا ، دون هدف . . دون فكرة !

علا صوت أذان المغرب ، ودّعت «عوجة» آخر درجات السلم حاملة مبخرها بهمة من تؤدي واجبا ، جلست بمحاذاتي ، بل جعلت بيت عمي قبلتها .

أسقَطَتْ الجمر الأحمر المتقد بوسط حفرة رملية صغيرة صنعتها بداخل إناء مستدير ، كسرت فوقه بخورها وحرملها ، انتشرت سحابة من الدخان الأبيض الكثيف ، صاحبها صوت المؤذن في مسجد (النزلة) الكبير ، وهمهمات وطلاسم وتعاويذ ظل يحفل بها لسان «عوجة» بلا توقف ، لا يقطعها سوى فرقعة حبات الحرمل المحترقة .

تلك التي كان جسدها ينتفض للرائحة التي يفرزها البخور فيعلو صوتها بهدير متواصل . . ربما قرأَتْ استغرابًا بعيني توحّد مع الزيارة اللغز التي قامت بها الشيخة «غزوى» لمرة أولى منذ تزوج أبي من خادمتنا «عوجة» !

دون أن أسألها ، أسرّت لي وكأنها تريد أن تُخرس نظراتي الفاحصة ، وحتى لا أتجاوز بتفكيري ما لا تعنيه :

«تقول ، شهران والرجل ليس على ما يرام ، ابنها ولها الحق أن تخاف عليه ، إلى الدرجة التي تجعلها تزورني وتترجاني لتحصينه من العين . .»

fb/mashro3pdf

ابتسمتُ بتهكم .

أكمَلَتْ وهي تُعْمِل يدها في البخور :

«بيني وبينك ، ابنتي هي كل مـا يهـمني ، لولا أختـك لما فعلت . .»

مع ذلك ما كفّت «دليلة» عن تمجيد فحولته إلى الدرجة التي تجعلها قابعة بين يديه بعشق ، رغم مضي الأشهر على زواجهما!

تعاركت مع أسئلتي لبعض الوقت ، حتى أعادتني نفخات «عوجة» على الجمر لتوقده أكثر :

«غزوى كادت تطلّق لأكثر من ست مرات ، كنت صغيرة لتعرفي ، مصيوب أراد ولدا ، في حين كانت الفتيات تملأن داره ، وعندما وُلدَ «نذر» حيًا ، صارت غزوى الشيخة فعلا . .»!

***

صورٌ تمددت دون رغبة منـي في المخيلة . . .

ذات ليل كنا على السطح نحن الأربعة ، «دليلة» و«عوجة» و أنا وحزن شفيف !

وسؤالي كسَر برودة الصمت :

«لماذا يموتون إذا خلقوا ذكورا» ؟!

بابتسامة بؤس تردّ «عوجة» :

«قدرٌ من الله»!

fb/mashro3pdf

وكانت إجابتها تكفيني .

أسلّم طفولتي لها ، تمسح على ظهري بحنان ، فأبقى أمارس هوايتي في التأمل .

***

رفعت «عوجة» مبخرها ، تؤرجحه بحركة دائرية ، تمتمت بآيات من القرآن ، مطت شفتيها بأسى :

«حسدوها بنات النزلة ، اختارها «نذر» دونًا عنهن ، ماذا ينقصها ليستكثروا زواجها منه» !؟

ما توقفت كثيرا عند جملتها الأخيرة .

حملت عجزي وغادرتها تاركة ورائي ثرثرة ودخانًا !

بعد تلك الليلة ، وما لم أصدقه من حديث «عوجة» عنه/عجزه ، صرت أفكر كثيرا منشغلة به ، حتى مضى وقت طويل قبل أن أقرر معاودة الذهاب إلى ممارسة جنوني - بهدف- قد يكون غير معلن ، ذهبت إلى البئر/بئرنا ، «دليلة» و«هو» وأنا !

fb/mashro3pdf

ما أصعب أن ينتشل أحدنا من رتابة أيامه لأكثر ساعات يومه شحنة !

بعد لقائنا البئري الأول -كم من المرات- سألت نفسي عما يريده مني . .؟

وكنت بعد كل استغراق متعب بالتفكير ، أشعر أنني أتيه ، وأن النفق الكان مظلما صار بلون العتمة التي نشأت بها في مدينتنا الجنوبية ، المحكومة بالأعراف المفصلة بشكل أضيق من قياساتنا ، بحيث لا يمكننا الخوض بتفاصيل - كلنا - يود السؤال عن جدوى ممارستها بكل تلك القدسية ، وكأن الله شرّعها !

فأنا اليتيمة ، أفاجأ بأن هناك على الضفة الأخرى من الحي ، إنسانًا يحمل دمي يعشقني حد التهوّر ، مع ذلك تزوّج بأخرى!

كنت وحيدة هذه المرة تحت ظل الشجرة الوحيدة لصق «بئرنا» ، سارحة بعناقيد من الأحلام المشتهاة التي لا يصح الإفصاح عنها ، كان ردّي :

«سيغدو حبنا مشكلة»

إذن لمَ جئت إلى هنا مرة جديدة ؟

هل كنت أشتهي الحلم الذي رسم ؟

ربما يومها تعاظم الشعور بداخلي حتى شملني الحزن .

حزن فقدان «دليلة» باكرا .

حزن وحدتي - الجديدة - وارتباكي الذي ملأني حد الضياع

fb/mashro3pdf

في مدار كلماته ونظراته الأشهى !

جاء إليّ /هاهو «بئرنا» يضمنا من جديد ، لقاء ثانٍ قد يزيح الستار عن خفايانا الدفينة .

بعد صمت قرأ خلاله جلّ أسئلتي ، استطرد :

«أنتِ فتاة ما بداخلها ثمين جدا» !

كان صوته يربكنـــي أكثر .

يزيد الحلم الذي يعيد الرسم مرتين ؛ فيؤكد خطوطا أوضح للضياع الذي أشعره !

ومن مكان الحلم وصلني هسيس «دليلة» مغبشا :

«مزّق ثوبي الأبيض ما استطاع الانتظار . .»

بصوت واثق واجهته :

«نتزوّج» ؟

لا أدري لم كان يجلس إلى جانبـي هادئًا وغاضبًا ، كما لو أن جثة خرجت لتوها من مقبرة بعيدة !

لكنـي شعرت أن ثمة شيئًا يدور بداخل ذلك العقل ، وما أخطأ حدسي ، خصوصا بعد أن امتلأ قلبي «به» حدّ الإغراق ، لقد فتح «نذر» بوابة على عالم آخر وجعلنـي أجرّب الدخول إليه ، كنا نستسلم لعزلتنا في عالم لا يشبهنا ولا نريد أن نشبهه !

ارتوت جذوري بمائه وأزهرت الحياة في أوردتي ، كنا ننساق وراء جنون الحب فيتحول إلى شيء من الفوضى تنتهي بنا إلى عزلة لذيذة .

fb/mashro3pdf

«معه» ، شعرت أنني اكتشفت مدينة جديدة عليّ ، غامضة ومريبة ، يختبئ ناسها وراء الأقنعة ، ينسجون الحكايات بعضهم عن بعض في الخفاء ، ويمارسون جنونهم بالخفاء أيضا ، هنا حيث الكل يتلصص على الكل حتى تكاد بعض العيون الصغيرة تباغتك بلمعانها من شقوق الجدران وارتفاعات الأسطح ، تفضح الأسرار مهما كانت ، بل إن أسرار الفراش كانت الأكثر إلحاحا وطلبا !

كل ذلك ما كان يعنينا ، هو وأنا !

بقينا بحبنا الوجل متوارين خلف الظنون ، بقينا بعيدين قدر استطاعتنا ، ربما بموافقتي له ، كنت أريد أن أكتشف إلى أي حد مارسنا الاختلاف عن الآخرين ؟ في مدينة تسوّرها التقاليد القاسية ، والى أي حد دفعنا هذا الاختلاف / التمرد / الرفض إلى مناكفة الجميع دون استثناء ؟

أعترف .

بقيت الأيام التالية ثملة من العواطف التي تصب في جسدي ، ها أنا رغم إعاقة/رجلي الناقصة ، أجد نفسي قريبة من رجل يجعلني أهذي حبا بعد أن عبرت الليالي وحيدة ، غريبة كنت حتى عن أبي .

إنه الآخر الذي فتح قلبي بعيدا عن الأوجاع ، وانسلّ بهدوء عائدا بعد أن توهمت فقده بزواجه من «دليلة» .

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

نـــذر الخريف

لم تزرنا لفترة ، ولمستُ صراعا في أجواء البيت .

من سطح بيتنا ، نهارا ، كانت في منزلهم الكبير تربط الشجيرات الصغيرة النامية ، فالخريف جاء مبكرا تلك السنة في مدينة تغفو على الاختلافات .

***

بعيـدا عن الأعين ، كـانت القـابلة «حـسنة» تشـرف على الولادة الفعلية العاشرة للشيخة «غزوى» ، ولأن الشيخ «مصيوب» كان يطوي صفحات حياته ركضا ، تزوّج باكرًا من شيخة بنات (النزلة) ، غزوى بنت طيبان ، ليكمل هالة كانت تحيطه بتسلّمه المشيخة في (جبل الكـــوم) ، ليال ثلاث عمتها الاحتفالات وتفريغ خراطيش الرصاص لتلوّن السـماء ، غزلان للشواء والقـهوة المحمصة تعبق الأجواء برائحة الهال الطازج .

fb/mashro3pdf

تزوجت «غزوى» من «مصيوب» تلك التي حبُلت قبل أن تتم الشهر الأول ، وتزايدت الإناث في بيت شيخ العشيرة ، كان انتفاخ بطنها يمر بطيئا بانتظار الولد ، الغريب أن ثمة علاقة كانت بين جنس المولود واستمرارية الحمل أو اكتماله .

نبقى نحن أهل «النزلة» نلمس الحيرة والقلق تلوحان سمرة وجوههم ، خاصة بعد أن اعتدنا/اعتادوا فقدان الذكر بين بنت وأخرى .

فقِد خمسة من الذكور !

كانوا يموتون قبل أن تنطلق صرخة أي منهم باستقباله للحياة ، حينها ، كان الشيخ «مصيوب» يفر من الناس/نفسه / النحس الذي قرر أن يلبسه ، يستلم خيبته الجديدة مضطرا يأخذها معه ، يسافر لا ندري إلى أين ، بعيدًا يرحل عنا ، يطمر أساه ، ثم يعاود الكرَّة!

في مساء هادئ ككل الأمسيات .

ما كنا نعلم أن «حسنة» تمارس عملها ، كنا نلتحف بطفولتنا غطاء النوم ، «دليلة» وأنا على جانبي «عوجة» التي تحتضن ضآلتنا ، وكنت كعادتي أمارس هوايتي في تأمل النجوم ، تحكي لنا عن ولادة صبي يحمل في وجهه نورا يحبه الناس ، «صبي» سيكون حديثا للبشر . . .

شدني كلامها وتعلقت بدفء ثوبها .

بصوتها الخفيض ، تمتمت :

«مسكينة غزوى ، قد يكون وجعها الجديد دون فائدة» !

fb/mashro3pdf

كانت تعلم بها .

كل مرة كان الصراخ يعلو ثم لا شيء ، يحل الظلام والليل يزيد حزنهم/حزننا الذي لا نجد ما يبرره سوى تعاطفنا معهم . ليلتها ما كنا نتوقع الكثير ليقال في النهار ، فإما بنت تضاف لمن سبقنها أو ذكر ميت .

نهار ذاك الخريف البعيد ، وقفت «حسنة» على مشارف (النزلة) ، تنشر بشارتها بولادة ولـــد صحيح للشيخ «مصيوب» ، بقيت ذاك النهار تحلف وتقسم بأغلظ الأيمان ممسكة بإكراميتها ، تزغرد بفرح مجنون وتعيد نقودها لما بين النهدين !

وُلدَ «نذر» وكف الرجال عن التندّر بعجز الشيخ «مصيوب» ، وبقي يستقبل المهنئين لسبعة أيام !

يوم ولادته ، أرسلت الشيخة «غزوى» بطلب أمنا «عوجة» ، عرفنا «دليلة» وأنا فيما بعد أنها كانت مدينة لها بولادة «نذر» صحيحا ، و ولطين الأولياء الذي عجنته لها وقرأت عليه ، فواظبت على إشعال بخورها السحري في الليلة الأخيرة من كل شهر ، حتى اكتمل الحمل وانتهى بولادة ذكر سليم !

كنت قد فقدت الأمل في العثور على الرجل «الأمنية» ، وفضلت عزلتي ، المكان الأجمل في هذا العالم المرتبك ! لكن كان لا بد من أن أمارس حقي كامرأة كاملة - رغم النقص والنظرات المشفقة - «نذر» لم يكن يغدق عليّ عطفه مثل الآخرين ، لم يحاول مرة أن

fb/mashro3pdf

يحدثني كناقصة .

ليس ككثير من النساء اللواتـــي ادعين أمنياتهن بتزويجـــي من أبنائهن ، غير أن عرجي ردعهن !

العطف المجاني ما كان يقدم لي سوى المزيد من الألـــم !

لم تكن النزلة على اتساعـها ، و «جبل الكوم» كله قادرين على استيعاب حجم التنهيدة التي أطلقتها بعد خروجي للمرة الأولى من عنده .

كانت ثمة غرفة صغيرة/جميلة تقع بمحاذاة باب مزرعته الخاصة ، مجهزة بفرش زاهٍ ، كنت معه بعد ساعتين من ممارسة طقوسي التي صار يحبها ، وبعد أن اشتركنا بطفولتنا برمي الأحجار في «بئرنا» ، قررنا الذهاب لمرة أولى!

كان الليل غاية في السحر ، لكنه ما كان كذلك بالنسبة لـ «دليلة» !

حينما عدت إلى بيتنا ، كانت تنتحب بين يدي «عوجة» تلك التي ما كانت لتحرك ساكنا . . تصافحت أعيننا «دليلة» وأنا ، وما وجدتُ سوى الحسرة تملأ رمادية عينيها ، شيء ما احتمل أيّ تفسير .

برقت الذاكرة ، لمحت وجه «نذر» الذي كان منذ نصف ساعة وما شعرت بأنه يخفي سرا !

fb/mashro3pdf

رمتني «عوجة» بـجملتها مستهجنة بعد أن فردت جذعها :

«يريد أطفالا يحملون اسمه وهو لا يقربها» !

أجهشت «دليلة» ببكاء صار يتصاعد للدرجة التي خشيت معه أن تنكفئ على وجهها ضعفا . . مسحتُ على شعرها ، كانت تتوارى خجلا ، هي التي ما استطاع عليها صبرا يوم زواجهما !

كنت صامتة . .

إذ لا رغبة لدي بأي كلام . . انتابني شعور مؤلم ، وفجأة أحسست بأن كل شيء صار تافها .

صعدتُ إلى سطحنا . .

أردت أن أكون معي ، فلا قدرة لي على مجالسة «عوجة» وزائراتها وغريب طلباتهن ، تطبيب وقراءة وكثير من الثرثرة . . فبعد وداع النور ، تنزع «النزلة» رداءها النهاري ، تطرد الشمس من سمائها ليبدأ غليان من نوع آخر ، غليان الأفواه النسائية .

رفعت رأسي بعدما لفتني صوت . .

كانت «دليلة» أمامي واقفة ، رائعة مثل فجر على نهر ، انحنت لتجلس قبالتي ، فرميتها بسؤال يسهّل لها البدء :

«ماذا حصل» ؟

أنين مخنوق تصاعد حتى غدا دموعا بائسة .

من بين الألم خرج الصوت مهزوزا :

fb/mashro3pdf

«لا يلمسني ! يتعطّف عليّ بقبلة على جبيني كل صباح ، أدخل بعدها لأستحم وأترك شعري مبلولا ، لا أدري إن كنت أخدع نفسي أم أوهِمُ غزوى» !

في الفضاء البعيد كانت ثمةَ غيوم رمادية تتكسّر مخلّفة أشكالا لا تتشابه ، كنت صامتة ، لا يعبر سمعي سوى نشيجها المتصل .

فكّرتُ ، ربما كانت «عوجة» هي الوحيدة التي تعلم بتلك التفاصيل الصغيرة السرية جدا .

هدأ نشيجها تعبا ، ابتلعت دموعها كمن يريد استئناف حديثه :

«يقرص مؤخرتي مرددا ، تعجبينني لكني لست على ما يرام»!

ما كنت قادرة على تصديق جملتها تلك .

فجأة ، وجدتني مرتبطة به ، لدرجة يصعب تفسيرها .

كنت قد أدمنتُ الحب خلسة ، تماما كما يفعل اللصوص المحترفون . بالأمس كنت اضطجع على فراشه بليل يغسله الحزن ، انظر إلى عتمته عبر مساحات من الحرية المشتهاة ، وشعرت بأن ابتسامتي قد تلاشت ، بعد أن استطالت قليلا!

ولا أدري لم امتلأتُ بالوجع فجأة .

ربما لأن هناك ما يبرر حزني فعلا رغم سعادتي به وبحبه . . «نذر» فتح لي بوابة إلى عالم ملونٍ وعبر معي إلى هناك ، وما خسرت سوى شقيقتي لقاء ما كنتُ أفعل !

تنبهتُ على صمتها الذي طال . .

fb/mashro3pdf

من بين خيوط انكسارها ، أطلَقَتْ «آهة» اخترقت تعبي . . وفي لحظة تساءلت : «لم كل هذا الجنون» !

تذكرت جوابه عن سؤالي هذا يوما :

«للجميع اسبابهم ، لذا ينبغي أن نفهم الأسباب أولا» .

وليتهم يهتمون لأسبابي !

أتراني بحثت بين ركام كلماته ، التي يجهدني فهمها في أحيان كثيرة ، لأجد تبريرا لحماقات صرنا نمارسها ؟ أم إنني أردت أن أكون متصالحة مع ذاتي وقناعاتي ؟

كانت ثمة هزة غريبة ترجني حتى الرأس ، و «دليلة» ودّعت آخر درجات السلّم المفضي إلى الباب الكبير .

ما كان يسكنني سوى شعور يتيم في تلك اللحظة الإثم ، رغبة مجنونة لأن أحلق معه . . وهكذا كان .

***

ذات صباح لم يكن يشبه الصباحات الأخرى . . شعرت بعذوبة خاصة .

تمطيت في الفراش بدلع الأنثى ، ولسبب ما تفجّر بداخلي فرحٌ خَجِلْ . . ربما كنت مستغرقة بالنوم للدرجة التي ما شعرت معها باستيقاظ «عوجة» التي لاحظت أنها ارتدت ملابس صرت أعرف منها وجهتها !

متكئة على طرف السياج ، تلوّح بيدها باتجاه الشباك الكبير !

fb/mashro3pdf

فتحت عيني على اتساعهما دهشة ، استدارت «عوجة» ناحيتي وما توقعت استيقاظي ، وكمن تبرر سلوكها عاجلتني :

«اتفقنا منذ الأمس على زيارة مقام الشيخ «الأسود» وما جهزت «دليلة» حتى الآن»

على دهشة تلاشت بضحكة تهكم نزقة ، عاودتني إغماضة لذيذة .

غفوت على تخيلاتي ، يزرن مقام الولي «الأسود» ، يجدن عنوة لأنفسهن مكانا بين طوفان النسوة طالبات البركة ، يعبرن عتبته لمرات سبع ، حاملات أمنياتهن بالإنجاب ، يتمسحن بشاهد قبره بآيات صارت تفتقد للتنقيط ، يربطن نذورهن بشجرته الممتلئة بالخرق الملونة ، يتركنها على الأغصان المتشابكة لتغيير ألوانها الشمس والأمطار .

«الأسود» أسطورة نزلتنا ، وليٌ من الصالحين ، مات مقتولا ذات ليل ، مع ذلك لم ينزف رغم الطعنات العشر التي تلقاها جسده ، وهنا يكمن سره الأعظم ، خنجر مغروس ولا أثر لـقطرة دم واحدة!

سليل أكبر عشائرنا ، وله من الأبناء خمسة وعشرون ، من زوجات سبع ، عاش خادما للجميع في «جبل الكوم» ومات بهدوء يبعث على التساؤل .

و«دليلة» تأخرت قليلا ، ويصلني تأفف أمنا «عوجة» ممزوجا برائحة مشموم نديٌ للزيارة الحل !

طرقٌ خفيضٌ على الباب ، وانتفضت «عوجة» مختصرة الدرجات

fb/mashro3pdf

الثماني عشرة إلى النصف ، هدأ المكان بعد أن كان مشحونا بالتوتر ، ورائحة المشموم اقتحمتني بقسوة !

نهضتُ إذ آذتني الرائحة للدرجة التي جعلت الدنيا تعتم رويدا رويدا ، استندت على الحائط بأنفاسٍ تتقاطع وتتداخل ، متكئة على عَرَجي ضمتني زاوية في السطح ، كنت أجذف دون توقف يريحني ، استنشقت هواءً رطبًا بعد أن دار رأسي في الفراغ ألف دورة !

جثوت مستغربة . .

أبدا ما كانت رائحة المشموم تثيرني حد الغثيان .

مثل قطة جريحة ارتميت على الوسائد الكثيرة الملقاة على فرشتي . . ووجهي لسماءٍ شعرتها بعيدة ، باردة ودون نهاية . . غفوتُ على أنفاسي المتلاحقة وضعف تلبّسني .

على رائحة احتراق أفقت !

فتحت عيونا متورمة إثر النوم على منظر «دليلة» وهي تعبر بتتابع فوق مبخر أمنا «عوجة» ، مرتدية اسود باهتا ، تحوّط رسغيها شرائط ملوّنة لا أشك بأنها منتزعة من شجرة الولي «الأسود» .

تمطيت كقطة كسول ، وباتجاههن أفلتُ سؤالي معجونا بالتثاؤب : «كيف كانت الزيارة» ؟

التعاويذ التي كانت تنثرها أفواههن بوسع السطح غطّت على سؤالي الذي خرج منخفضا ، بل إنهن ما انتبهن لبقائي المتأخر في الفراش .

fb/mashro3pdf

ولمرة أولى أرى تعبا يلبس ملامح «دليلة» ، منهكة كانت حد اصفرار الوجه !

فكّرت أن البؤس قد يكون قدر الإنسان في كل مكان مهما حاول الابتعاد عنه .

نهضت متثاقلة ، تركتهن بانشغالهن ، وقفت لأحرك جسدي المتشنج ، انتابني دوار مفاجئ وهاجس غريب . .

أفرغت خواء أحشائي التي التهبت وغام بعدها كل شيء .

لم أتذكر حين أفقت سوى وجه «دليلة» متورما من البكاء ، ابتسمت أطمئنها بأني على ما يرام .

***

حينما عدت من قابلة «الوادي العميق» ، لصق نزلتنا ، فكّرت بأن علي أن أبتدع كلمات لها موسيقى خاصة كي لا تكون الحقيقة مدببة كالحجارة !

عدت مع أذان المغرب وكان صوت المؤذن كمسحوق ناعم يتطاير في الهواء ، وكلمة «الله» تخترقني بإصرار غريب .

كنت أستعيد ليلتنا المجنونة سويا ، عيون لا تستقر على نقطة محددة ، معركة طبيعية صغيرة بأصواتنا المتداخلة نشوانة ومبهمة ، واختلاطها كان يمنح للدوي الداخلي تدفقا متهورا أكثر . . صوته كان

fb/mashro3pdf

كالدخان يتسامى فيدخل أذني وحدها ، يداي متدليتان برخاوة خَدِرة ، وصوت كان امتدادًا للذة ، همس لي كثيرا بعد أن هدأنا ، دثّرني بحنانه أكثر من ثيابي ، وارتاحت يدي اليمنى على وسادته وهو يقابلني يقرأ أحزانا طفت على روحي ، تماما كما كان يحدث بعد كل تحليق لنا معا !

كانت ابتسامة يائسة تنزلق على شفتي وأنا أحكي لـ «دليلة» ، واستعدت الصور المجنونة كلّها :

«معه ، مشيت مثل قطة عمياء»

خرج صوتها متعاطفا أقرب للتنهد ، أشعرتني بهزيمة من نوع ما ، نظرتُ إلى سقف الغرفة ثم الشباك المطل على الدنيا ، أطراف الشجيرات لوّحت لي بوهن ، وكنت بلا شعور محدد يسكنني .

كانت شفتاها تصنعان ذاكرة ابتسامة بعيدة ، ومُطرقةً سألتني : «أتعطينني هذا القادم» ؟!

تغيّرت نبرتها ، وتلوّنت بشيء يشبه الخبث ، صفعتني مساعدتها التي كانت بطعم التراب !

ظلّت عيوني معلقة بفمها الذي نثر المزيد من القبح :

«سأبقيك بعيدا عن الأعين ، ولن يعرف بأمرك أحد ، على أن يكون الطفل لي أنا»

عرقٌ بارد غَسَلني . .

شعرت ضياعًا آخر وحزنًا جديدًا !

fb/mashro3pdf

فكرت بـ «نذر» ، أنتظر مجيئه المطمئن ، فكرت بلذة خاصة علّني انتزعُ قشرة الحزن الكثيفة التي تلبسني بعد كل استغراقٍ بالتفكير ، وبسؤال صار يؤرجحني بين طمأنينة وهلع :

«لمن سيكون هذا القادم» ؟!

***

من شباكها الواسع وبظلّها الأسود المنعكس إثر المصباح المتدلي من بعيد ، أشارت لي «دليلة» بالنزول من السطح ، عند باب بيتنا التقينا ، ودّعت «عوجة» ، راحلة للمدينة أبحث عن علاج لـعَرَجي/لفضيحتي التي لا يعلم بها سوانا ، «دليلة» وأنا ، ثم «نذر»!

عنده ، في المكان نفسه الذي هيأ لخطايانا/أفراحنا ، كانت «دليلة» ترجوه ليؤويني/يسترني ، فيبقيني بعيدا عن الأعين .

مذهولا كان «نذر» !

بل مختنقا بخيبتنا ، وكانت عيناي مثبتتين على الأرض وأنا أخطو بتلك الخطوات الوجلة باتجاه مدخل الغرفة الصغيرة لصق مزرعته .

fb/mashro3pdf

دون مشاعر محددة دخلت مكاننا ، وعينا «دليلة» تجسان قلقي ، وربما شيء من حزنِ/ صدمةِ زوجها الذي تركنا ، ضمتني إليها بحب خاص ، همست :

«لا غربة هنا ، ونذر ليس سوى أخ لكِ ، ولن تكوني عبئا كما تتصورين ، ستمضي الشهور الأثقل ، نعود بعدها إلى بيتنا . .»

أغمضت عيني على وجع اخترق صدري . .

«دليلة» ما كانت تعرف بأمرنا ، بل لم تسألني عمن أسلمته جسدي وسحبني معه بغوايته وحزنه ، كانت تسرق ابتسامتها من ماضٍ بعيد ، وكنت أتأمل غرفته التي ضمتنا لليال ، غطي سقفها بجذوع شجر دون تساوٍ ، وتلك المدخنة ذات القبة المثلثة تدفئ مكاننا شتاء ، فما كنت انتبه على تلك التفاصيل حين نغيب بنشوتنا .

فقط تكاثر هاجس بداخلي ، سرّب الكلمات الداعرة التي كنّا نتبادلها ، مثل مياه المطر المندفعة بخفة ، وعبر الشباك الذي فتحته «دليلة» ، أطل وجهه ، تلاقت أعيننا ربما لمرة أولى بوجع خاص ، كان يقرؤني بكل حواسه ، ولمرة وحيدة شعرت بأنني غير قادرة على قراءته بوضوح أحتاجه !

هناك بمزرعته ، سجني الجديد ، في المدينة المكفّنة بالعتمة ، استنشقت الخوف مضاعفا رغما عني ، وبأطراف مسترخية بالبرودة كنت أرقب الكوارث القادمة . .كنتُ أراني مثل طفلة صغيرة غادرتها البشاشة صدفة ، بريئة حد إغواء الجريمة ذاتها!

fb/mashro3pdf

ليل النزلة البالغ السواد كان يشعل بأنحائي رهبة من نوع خاص . . قبل أن يغادرني «نذر» لأكون وحيدة في سجني ، زودني بكل ما يلزمني معرفته عن مكاني الجديد ، وكالضيفة الخجلة كان يدلّني على ما احتاج ، وعرّفني على «سهراب» حارس المزرعة الستيني .

أغلق «نذر» الباب لنكون وحيدين ، تنهدت خوفا باردا ، همست بضعفي :

«خائفة» !

بريق عينيه كان يلملم ارتجافي ، تذكرت بأنه ظلّي ، حضنني زارعا شيئا من السكون في صدري بعد بقايا هلع استوطنني مذ زرت القابلة . .

كنت أشعر به ، يواري شحوبه المسكون بنبرة جنائزية صرت أميزها بعد كل مصيبة أو همّ ، بيديه كان يقودني مذ تعارفنا والآن إلى ملجأ يكاد يكون مكشوفًا . .

تائهة كنتُ . .

وربما لضجيج المحنة وَقْعٌ خاص جعلني في حيادٍ مُبْهَم !

fb/mashro3pdf

عرائس الصوف

حينما اختنقت روحي بالخيبة ، كنت لا أرى سواها ، «دليلة» ، ما ترددت في لمِّ خيوط الفضيحة الـ كانت وشيكة . . تشعّب الأمر في ذهني ، فكّرت في المرات العديدة التي شاركتني بها خوفي وحزني ومرات فرحي القليلة . .

امتصّت هلعي من خيط الدم النازف لأول مرة مني ، رأيت بقلبي ذكاء تصرفها ، دسّت لي القطن الأبيض بفرح :

«ستتمكنين من مزاولة حياتك بشكل شبه عادي ، لا تخافي يا مجنونة ، صرتِ امرأة» !

وباردا جاءها تساؤلي :

«هل سنكف عن اللعب بعرائسنا» ؟

ضحكت كثيرا حتى انكفأت . . قائلة :

«لا ، سنظل هكذا حتى لو أنجبنا أطفالا وسنشاركهم متعتهم»

fb/mashro3pdf

أخذتني من يدي / دهشتي . .

«تعالي ، سنبدأ من جديد»

وأتقنّا بعد مرات عديدة صنع عرائس الصوف ، قطعتين خشبيتين متصالبتين ، تربطان بخيوط الصوف الملونة ، وسائد بحجم أكفنا محشوة بالقطن للرأس ، ونختار الأسماء التي لعرائسنا /بناتنا نتركهن بفيء البيت ، نغطيهن بشرشف مزركش كي لا تمحو ألوانهن شمسنا اللاهبة ، ولا تعبث بهن القطط الكثيرة التي تملأ بيتنا . .

حتى عرائس «دليلة» كانت أجمل !

فيما كانت تصر على أني الأجمل في الحي . .

وتتعارك مع بنات النزلة حينما يضحكن/يسخرن من عَرَجي ، تبقى تشتمهن بغضب وصراخ لا يوقفه سوى دموع ضعفي وألمي .

توشوشني من بين خيوط جزعي :

«لن نحتاج إليهن كي نمرح ، سنكون لبعضنا . .»

تسبقني بمد خطوتها . . تقف أمام صمتي وبكائي ، ضجرة تقذف :

«جففي دموعك يا بلهاء والحقي بي ، لدي ما أريه لكِ ، ستفرحين»

عند حافة البئر وقفنا / وقفتُ لأول مرة .

جاءني صوتها بروح جديدة :

«انظري ، واحد . . اثنان . . . ثلاثة»

وقذفت بالحجارة بطريقتها الأغرب ، ووصلنا صوت من العمق ،

fb/mashro3pdf

ابتسَمَتْ بنزقها .

«أسمعتِ» ؟

دغدغني الصوت و بَدَأت .

في كل مرة أشعر بضياع بشكل ما ، ما كان سواها لينتشلني منه . .

خوف مفاجئ جعلني أتوقف عن التفكير بآلاف الأشياء التي بدت لي ، رغم روعتها ، حزينة وبائسة ودون معنى .

«آهٍ لو كنت أمتلك المقدرة على التنبؤ» !

بصوت مسموع أطلقتُ أمنيتي .

: «ماذا لو كنتِ تمتلكينها»؟

انتفضت من السؤال ، كان العم «سهراب» عبر شباك الغرفة ، ابتلعت خوفي ، أغمضت عيني على خجلي منه/ مني !

بعد صمت تمدد بيني وبينه ، أجبته بحذر :

«ما كنت التقيته عند البئر ذاك المساء»

: «لقد اختاركما القدر لتكونا معا ، فلا تندمي على شيء ، أبدا»!

: «لست نادمة ، لكنني ضائعة ، بعد الفوضى التي تحوّلت إلى ما يشبه الخراب . .» !

: «الضياع أول الطريق»

كلماته خرجت واثقة ، واختفى خياله من الشباك المطلّ على

fb/mashro3pdf

ضيق غرفتي ، انسلّ بهدوء يشبه حضوره .

استعدت كلمات «نذر» التي غادرني بها :

«سنحضر صباح غدٍ ، لنكون معك ، أرجو أن تستغرقي بنومٍ عميق»

داعب أنفي كما اعتاد أن يفعل ، قبل أن يتركني ، وبنصف ابتسامة وكثير من الخيبة بادلته محبتي الـ صارت موجعة !

أشد ما أوجعني فراق أمنا «عوجه» ، وشعرت بؤسا مضاعفا بتحايلي عليها ، فبين لحظة وأخرى يتراءى لي وداعها الباكي ودعواتها بأن أتخلّص من عرجي الذي صار من صفاتي .

ما كانت تعرف ، أنني صرت أحمل همًا جديدًا أكثر إيلامًا ، وأن عاره قد يلتصق بي حتى الموت !

ليلتها ، نمتُ على فراش خطيئتنا ، وتذكرت جنوننا الذي اقترفناه كثيرا ، تبسّمت بلذة مسروقة من بين لحظات حزني .

مثل قطة جريحة أربض بسجني ، و«نذر» سجّاني الأعذب ، أنتظر بلا انتهاء في مهرجان الوجوه/الأصوات الكثيرة ، أنتظر نهاية ما عدت أعرف كيف ستكون .

كانت ليالي صفاءٍ ، رغم برودتها ، مغزولة من حنين لا يرى ، باردةٌ لأن لي فمًا كبيرًا ينثر في الريح كلماته الغبية ، يُخرج أصواتا بليدةً تقذفها شفتاي المثقوبتان بألم ، ويداري وجعها/وجعي صبْرُ «نذر» وولهه .

fb/mashro3pdf

كنت ربما لأسباب كثيرة أمتلئ بالحيرة فجأة ، وتتداخل أنفاسي برهبة من نوع خاص صار يفهمها «نذر» ، وهمهمات صغيرة طافحة بالحنان الوَجل ، يخفف حدتها بلمسات أبوية على وجنتي .

تنهّدتُ بعد أن هدأت ونقلت بصري للشباك ليظهر الجذع المائل ناحيتي بسلاسة ، فيغطي جزءاً من السماء التي أرسلت مطر الديمة الناعم ، وحرارة كفّ «نذر» تتسرب إلى فخذي المرتاحة لملامسة جسده بهدوء رائع .

تذكرت سؤالا كنت أجاهد كي أؤجله يوما بعد الآخر ، ارتفعت كف «نذر» إلى انتفاخ بطني الذي قارَبَ على نهايات الوقت ، وللانتظار شعور لا يضاهيه آخر ، كحبلٍ مشدودٍ يطوّقني من كل اتجاه ، كسرت الصمت / الخوف بسؤالي الصار مُلحًا :

«أتبكي عليّ إن متُّ» ؟!

عاد الصمت رتيبا حتى نطق بلذة :

«إن جاءك الملكان ، وسألاكِ عن حبيبك ، فقولي لهما ، حبيب مجنون ، مدين لي بالرجوع ، نفخت فيه ، فنفخ فيّ جسده وماءه ، فتكامل وعاد طفلا يخلق سماواته ويعبث ، لذا أهبه حقلي وتفاحي ونهري ، فيفيض ، ويخضر وينبت قمحًا وورداً»

علّقت عيني عليه . .

لا أدري إن كانت رهبة مفاجئة جعلتني أبهت أمامه ، تداركت شحوبي :

fb/mashro3pdf

«أي بوحٍ هذا» ؟!

مداريا نظره للبعيد وبنصف تنهيدة :

«بوح رجل غـبي» !

: «ماذا» !

: «يكون غـبيـا حين يشفُّ ثوبكِ وينكشف حقل السـوسن فـلا يمسه ولا تورق شفتاه عليه . .»

جمع كفي بقبضته وبصوت أراده واضحا :

«لن تموتي . . فهناك متسعٌ من الحزن ينتظرك ، سأشعلكِ وأهمس لكِ أكثر ، لن تموتي ، فلمَن سأورّثُ هذا البهاء الذي تركت . .» ؟

عيناه كانتا تقرأني حين صمت عن كلامه .

: «لم تصمتين وتسيل دموعك حارقة» ؟

: «معَكَ ، ألتذُّ بالصمتِ الذي أراه مقدسا» !

ضمني بدفئه ، صرنا نبكي بدموعٍ تتساقط للداخل .

استوقفته !

: «لا أريد من أحد أن يبكي عليّ» !

ابتسم بنزق ، وبدا شديد الروعة .

***

ذاك المساء حزين . .

البرودة والخيبة تلتصقان بي وذاك الشرود الأبله !

خـرجت «دليلة» من عندي بعـدمـا نزفت لي أخـبـار نزلتنا التي

fb/mashro3pdf

صارت بعيدة ، أحكَمَتْ شد الشال حول بطنها الذي تحشو خواءه بالأقمشة شهرا بعد الآخر ، حتى تحين ساعة الولادة ، التي اختارت لها أن تكون ، عندي في المزرعة !

حزِنتْ لأن «عوجة» مريضة بفقدي ، ولأن أبي «حابس» زار النزلة لست ليال وما التقينا . . رغم بُعدي ، أرسل لي رفقة «دليلة» بقارورة من ياسمين طازج هدية ، حصيلة إحدى رحلاته التي نجهل تفاصيلها .

كنت كئيبة دون أن اعرف سببا محددا ، هل لأن الياسمين صار يثير شجني ، أم لأن «دليلة» كانت قد اختارت اسمًا لابني !

نُحتُ كثيرا في ليل الوحدة .

وعبر شبّاكي ذاك المساء وقف «سهراب» يستنشق ضيقي الذي تسرّب إليه عبر هواء الغرفة الذي أصبح خانقا!

رفعت رأسي باتجاهه ، بدا لي حقلا من الحكمة ، وشعرت أن ثمة شيئًا يختمر بداخل ذلك العقل ، بادرني دون أن أكون مستعدة :

«ما الذي يؤلمك» ؟

: «هذا العبث الذي صرت أعيشه رغما عني» !

: «أحيانا ، نحتاج إلى عبثٍ يعيد ترتيب الحقيقة من حولنا»

أغمضت عيني على وجع ضاعفه ردّه ، وزفرت :

: «هذا التصور يملأ مخيلةً المخبولين فقط» !

أضاف بثقة :

«والأنبياء» .

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

احتراقُ السكّر

حينما حانت بوادر الولادة ، كان الليل يبتلع الضجيج والقمر سافر ، نباح بعيد يجرح السكون ، وألمي يتصاعد . رغم ذلك كنت أزحف نحو الدرجات الحجرية ، وأسمع خطوات «سهراب» والباب يئز خلفه .

بعيدة كنت . .

مستغرقة بوجعي الذي صار يتفاقم ، غير قادرة حتى على الصياح!

في الغرفة المجاورة كانا . .

أسمع بوضوح لأن همهمات لا أميّزها صارت تصلني رغما عني ، وأنفاسي المتلاحقة تقابلها من غرفتي ، تحتضن مخيلتي وجه «نذر» ، عينيه الناعستين ، ويتكوّر الحزن بداخلي أكثر !

بقيت أعاود الزحف إلى وسط الغرفة الباردة ، مواربا بدا لي الباب الخشبي وخطوات «سهراب» تغدو أبعد كلما اقتربت من فتحته ، أراه يعبر الممر مهرولا ، حتى خرج «نذر» بلا نعلٍ ، بجسد عارٍ ملتفتا حوله

fb/mashro3pdf

بتوجس ، بعد أن اجترع ماء باردا ، نادى على «سهراب» ، دون إجابة!

كنت أضغط على فكي لتصطك أسناني . .

سمعت مزلاج غرفتهما يُغلق وانتثر السكون للحظات .

كنت أزحف ويزداد السواد في السماء ، والقمر يحاول إكمال استدارته ، تراءى لي شكل بئرنا ، النخلات السبع تطوّقه ونور القمر يلوّن أطراف الأشياء بحنان . . والألم صبغ عروقي الدقيقة فغدت أغمق ، و أتصوّر أن الشحوب قد طال كل ملامحي .

على السجادة استلقيت أئن من وجع صار يتصاعد ، لا أدري إن كنت قد صرخت مستنجدة ، لكني فتحت عيني بحدقتين شديدتي الاتساع ، وكأني أريد أن أقبض على آخر المشاهد !

طنين ثقيل يصفّر في أذنيّ ، أغيب بعيدًا ، دبيب خطوات عجلى أوضح ما ألتقط ، همسات لا أميزها ويداه تربتان على كتفي بدفءٍ أعرفه :

«ستكونين بخير»

أجاهد لفتح عينيّ الذابلتين وباتجاهه أصوبهما بضعف ، أنتبه أن «دليلة» ليست هنا ، من بعيد يصلني صوتها حاملا بداخلة قلقا وصلابة :

«نذر ! وصلت القابلة ، اخرج من عندها» !

وأهمس جنونا :

«أحتاجه معي»!

fb/mashro3pdf

يدان دافئتان تتخللان خدر أصابعي ، أنامله تقرصني بخفةٍ ، يلفظها بأذني :

«احبك يا مجنونتي»

خطوات بعيدة تصبح أكثر قربا مني . .

صوت نسائي مبحوح يصلني :

«كم لها تتوجع» ؟

: «آه» !

أطلقتها وما استطعت المقاومة ، عرقٌ باردٌ ينزُّ من جبيني ويدان قاسيتان تباعدان ما بين الساقين . .

صوت «دليلة» من بعيدٍ :

«يا ستّار يا حفيظ» !

ما كانت تدري كم لي بتوجّعي . .

أشفقت على نفسي .

وانهمرت دموعي خيبة ، تمتمات القابلة تتصاعد ، عاودت سؤالها ولا إجابة .

أخرجتهم من حجرتي ، أَغلقوا الباب علينا فيما انطلق سؤالها الذي اخترقني :

«أين زوجها» ؟

وصراخي غطىّ على استفهامها المُر .

وكأني انسلخت من عالمٍ بعيدٍ جدًا .

fb/mashro3pdf

فتحت عيونا متورّمةً ، رفعت رأسي بتوجس ، وبيدي تحسست الانتفاخ الذي كان يثقلني وقد انخفض عما كان ، وبرأسي ألف تساؤلٍ يدور .

هل حانت النهاية تلك التي تخلق الحزن . .؟

بدت لي «دليلة» بصحة أفضل منذ شهور ، خدان متوردان براحة ما رأيتها مذ تزوّجَتْ «نذر» ، وكانت تلحُّ عليّ بأسئلتها لتتقن دور الحبلى أمام النزلة كلّها ، فالجميع بانتظار ابن شيخ العشيرة «نذر» ، والحيلة تنطلي عليهم بترحيب غيرِ عادي!

ربما كانت «دليلة» تضيق ذرعًا بصمتي .

تزورني لساعاتٍ تطول محاولةً فتح أبواب صارت موصدة بيني وبينها ، رغما عنا .

وبنزقها الذي اعتدته :

«احكِ لي عنه» ؟

: «ملاكٌ من ورد ، أحببتُ ارتداء حزنه ، يربطُ قلبه بخصلة من شعري ونغيب معًا في الدهشة»

: «تحبينه» ؟

: «لذا ما فكّرت في التخلص من ابنه»

ورأيتُ بوضوحٍ كيف أطلق وجهها سراح نقمته .

fb/mashro3pdf

تلك الظهيرة ، صفراء كانت ، وكنت محروقة من الداخل ، وددت أن أصرخ فيهتز الكون ، لكني ما وجدت سوى رماد صرختي !

مثل طفلةٍ تاهت في زحام ما ، كنت أنوح . . ووصلني هاتفٌ بعيد :

«ليس عارك وحدك» !

لم يبق لي سواه .

و«دليلة» تلف الصبي ، الذي صار لها ، بعينين مغرورقتين بالبهجة ، بحب تلاعبه لتأخذه لمملكة تضج بالسم .

كنت أهمس :

«خذي النعناع والحرير والنور لموائدكم العامرة بالخلافات»

حمَلَتْ ابني إلى حضن أبيه ، واحتوت بكفيها الدافئتين شحوب وجهي ، وعيناها تقرآن أخطائي وآثامي .

انغمستُ بنحيب موجع وفكّرت ، هل عليّ أن أتطهر وأفصح عن شناعتي لامرأةٍ كانت تشبهنيَ وأحمل لها كل الحب وكل الفرح ؟

أشرح لها كيف استلقينا ، زوجها وأنا على سرير مطرّز بالضوء وتبادلنا رضابا محليً بالجنون ، تحفّنا نافذة حفظت كل قهقهاتنا المحبة وعباراتنا المبتذلة . .؟

وباب يحرس خلوتنا ، وكيف مضينا في ردهات الحلم الكان مستحيلا ، وبقينا رهائن له ؟

مثل طفلٍ رائعٍ كان «نذر» يرشدني إلى منابع الحب الوضاءة ،

fb/mashro3pdf

ما ترك الخوف لينتثر بداخلي ، بل كان يجتثه بإصرار عجيب .

وكنت كلما غادرني / غادَرْتُ الحلم ، أهلكني الصحو .

كنا نصحو على زعيق قطيع اعتاد أن يعيش كما يجب . .!

اخترته . . اختارني ، أو وحده القدر اصطفانا من بين الخلق لنكون سويا ، راحلين نحو المسالك السرية الأكثر جمالا ووضوحا وراحة . هناك في مكاننا كنت أكشف عن حطام عمري ، ويبعثر هو أسراره أمامي في ساعات الظهيرة الطويلة ، حتى لم يتبق لدينا ما نكتمه .

معي ، كان مشرّع القلب والروح !

***

انزوينا في المزرعة لأيام ، نحن الأربعة قبل أن نعاود الرجوع لـ نزلتنا .

كنّا نودّع المكان بصخب الصغير الذي باشرته «دليلة» بطقوس الأمومة ، أسمع صوته وأعبر بنظري على بيوت «الوادي العميق» ، تلك الجدران والبيوت الطينية الحائلة ، والميازيب والمياه المتجمعة والأسطح المنخفضة والعالية ، عيون الناس المعلّقة والأزقة التي تضيق ، والكلاب السائبة والقطط الجائعة والروائح النتنة . . كل ذلك ما كان ليثير بداخلي كل هذا الشجن !

وحدهما عينا «سهراب» تكفّلتا بالهواجس المقلقة .

fb/mashro3pdf

لحظة وداعي له ، أسرّ لي :

«ستكونين قريبة منه ، لكنك منذ اليوم ستحتاجين إلى فمٍ مطاطي يتسع لعويل الانطفاءات القادمة» .

***

عند بئرنا كان يجيء تتوجه الجهات ، هائل من شدة الفرح ، يتلو عليّ ألقه ، فأخشع أمام تلك الرهبة الأصدق :

«سأغسلك بمائي وحيدة إلا مني ، أطعمك قلبي ، أسقيك شفتي ، لتنمو على جسدكِ قوافلُ دفءٍ ، تمضي بكِ إلى قدرٍ أنا سيّدهْ»

وما خابت نبوءته !

تمتمتُ :

: «كلنا مجنون حتى يجد من يفهمه»

وكنا لا نزال نمضي نحو نزلتنا .

الحزن يولد فجأة .

ودون أن يفكّر فيه الإنسان . .

وجدتُ نفسي حزينة لدرجة لا أتذكر معها أني كنت هكذا!

خرجتُ أستنشق هواءً رطبا ، والأرض تلمعُ إثر مياه المطر المتجمعة ، مبللة بلون بني كانت شجرة النبق الكبيرة ، بقيت هناك لمدة أظنها طويلة ، حتى شعرت بأن الرطوبة تتسرب إلى نهايات ظهري . .

fb/mashro3pdf

في الداخل كانت الشيخة «غزوى» تستقبل المهنئات بولادة حفيدها الذي أحبه الجميع ، وصار «طفلي» تتداوله الأيدي الكثيرة المتلهّفة لرؤيته ، كانت أصوات النساء تناغيه ، وصوت إحداهن الكان ثملا وشجيا يرتفع بالغناء بشكل أثارني إلى الدرجة التي جعلتني أشاركها كلماتها بنحيب خاص من تحت شجرة النبق .

«دليلة» كانت زاهية بحلةٍ خضراء مزركشة ، على رأسها إكليل من فلٍ أبيض ، قلت في نفسي :

«ما عادت تشبهني أبدا»

رائحة البخور تعبق في رطوبة الهواء ، والخادمات يقدّمن القهوة المعطرة بالهال الطازج ، وأنا ، بعيدة أنظر إلى الضفة الأخرى ، سطح بيتنا الخاوي إلا من أحلام بعيدة ظلّت معلّقة بالأعلى .

حاولت استعادة صورنا من هناك ، «دليلة» و أنا نرتفع على أطراف أصابعنا صباحا نطل على النزلة ، لكن الصورة بدت مغبّشة ومتداخلة ، ربما ما كانت رغبتي باستعادتها حقيقيةً .

الاحتفال بولادة «ورد» كان مستمرًا ، روائح الشواء تنبعث من بعيد وأدخنته عبّقت في السواد شكّلت سدًا سميكًا ضبب الرؤية بعض الشيء ، فُتحَ الباب ، ومن بين الأصوات النسائية ظهر خيال أمنا «عوجة» بردائها الأحمر القاني ، وصارت تقترب مني أكثر حتى تيقنت أنها كانت تقصدني ، تحت شجرة النبق حينما تلاقت أعيننا لمعت ابتسامة فرح حتى ملأت وجها أتعبته السنون ، أمسكتني من

fb/mashro3pdf

يدي ودخلنا احتفال الشيخة «غزوي» واكتظاظ الأصوات النسائية .

بين يدي «دليلة» يغفو صغيري رغم الضوضاء بروعةٍ ملائكية .

فجأة ، سمعنا طلقًا ناريًا مزّق الهواء . . كان إيذانا بوصول «نذر» .

رأسي يعج برائحة الخيبة ، تصوّرت لو أني مكانها ، حتما لن أضع ذاك الإكليل الأبيض ، ففي تلك الساعة ما كنت أريد سوى أن أدفن وجهي في صدره ، لأغسل التعب الذي استوطن روحي .

بدأنا نلتقي بشكل مختلف .

كانت لقاءاتنا في البداية سريعة . ثم ما لبثت أن بدأت تطول ، في فترات مسروقة أزور «دليلة» و «نذر» في بيتهما لأرضع صغيري وأرعاه ، ورغم تكرر الزيارات إلا أنها ظلّت محتفظة بنوعٍ خاص من الغموض ، ترك منطقة ما دون مجالٍ للرؤية باتت متجاهلة منا نحن الثلاثة ، وكأنها اتفاق ضمني للحفاظ على سرٍ ما!

لكني بقيت الأكثر خوفا على ابني ، أهرع لحظة بكائه ، أشفق على توتر «نذر» حيال ذلك ، خصوصا حينما تضم الجلسة من هم أكثر منا عددا .

كنت أمسك بطفلي بثقة الأمومة ، أرفعه في الهواء ، ألاعبه . . ليتناوله بفرحٍ أبوي ، يعيده إليّ لأهدهده بين كفي ، ويجتاحني الحزن فجأة !

و «نذر» الشاهد الوحيد على حزني في تلك الأوقات ، ليختلس الدقائق ، و«دليلة» غائبة والغرفة خالية إلا من الأسرار ، يتناوب على

fb/mashro3pdf

تقبيلنا الطفل وأنا ، حتى ينكمش فجأة ، عيناه تنزلقان بعيدا عنها بل أراهما تمتلئان وحشة تجاهها .

هكذا تدخل «دليلة» عادةً :

«أين وِردنا الصغير» ؟

ولحظتها يحاول «نذر» أن يبادلها الابتسام ، لكن وجهه يتقلّص وكأنه لا يطاوعه .

أنا من جهتي ما أحببت اسم «وِرْد» ، شعرته غريبا عليّ ، ليس سهلا أن يختار أحدهم اسم ابنك !

نهضت مسرعة باتجاه بيتنا ، ما كنت أريد أن أواصل حوارا موجعا على الأقل بالنسبة لي . . مشيت مودّعة دون أن ألتفت ، ودون أن تنتبه «دليلة» لخروجي ، كنت أنسلُّ من بين كركراتها وهي تلاعب ابني !

هناك . .

في غرفتي وحيدة إلا من صمت بغيض ، كنت أحمل قماط صغيري ، أقبض عليه بقسوة ، وكان صمتي يرتد إليّ كنزيف داخلي - فكّرت بكلام «سهراب» ، فأي فمٍ مطاطي عليّ أن أمتلك !

هدأتُ بعد أن بكيت طويلا . .

وخيّم على الجو البارد صمت قاسٍ ، انتظرت طويلا علّي أسمعُ وقع أقدامه ، لكن ، وحده الصمت البارد ظل ينخر ساعاتي!

اهتز رأسي دون إرادة مني ، واندفعت الكلمات من حلقي صراخا

fb/mashro3pdf

لا واعيا :

«وأنت يا نذر تنام حزينا كل ليلة ، أنت كذلك منذ التقينا ، باردٌ ، قلقٌ رغم الجنون الذي تحمل» !!

ونحتُ طويلا .

لا أدري لم شعرت بهذا ، لكني صرت متيقنة بأن المحنة قد أبعدتنا عن أمنا «عوجة» ، تلك التي بدأت تشيخ فعلا ، وانزوت بعيدا حتى عن حفيدها ، الذي اقترنت باسمه صيحات فرح / نشيد ملعون يردده كل من يصادفنا ، مباركة لنا !

دخلتُ عليها . .

في ظلام إحدى الليالي ، برقت أسنانها بياضا في الظلمة ، فردت ذراعها في محيط فراشها تحثني على الاقتراب ، كوّرت جسدي بحضنها الذي ما عاد يتسع لي ، وفكّرت بأن للظلمة ألوان قزح !

انزويت مثل قطة موجوعة ملتحفة صدر «عوجة» ، دغدغ قلبي لحن تحفظه رددته تعبها بتجلٍ صرت اشتاقه مذ تركتها باحثة عن خلاص من اثمي / شناعتي / فرحي !

بقيت بتأملي لها . .

في كل مرة كنت أتيقّن من أن وجهها عصيٌ على الكشف ، وأنها تجيد إخفاء أسرارها كأسئلة مصفوفة على باب الإجابة .

أدمعت عيناها بصمت رهيب ، وشعرت أن سريرها/سريرنا كان معبّقا بالارتجاف ، كانت تغني بينما روحها محلقة في ملاذ ما ، تنوح

fb/mashro3pdf

بكبرياء أعرفه ، «عوجة» التي اعتادت غزل التعب منذ احتوت طفولتي اليتيمة ، كم أحبها!

انسحبت بعيدا عنها بعد أن ترقرق الدمع وصار التماعه واضحا ، تركتها في عزلتها تخيط خلاصا لحياة بلا معنى ، كما كانت تردد !

وكنت أنسج من هربي قوةً مزعومةً ، غير أن السماء ظلّت مقفلةً ، لتدور أيامي بفوضى تلائمني وحدي ، لأستيقظ كل صباح على شيء ينعدم مني و فيَّ . .!

***

بعد ثلاثة أيام التقيته ، يحتشد في عينيه يأس بلا قاع . . أعرفه يتقن الصبر حتى الثمالة ويصرّ على قرع المستحيل . . سألته :

«كيف أنت» ؟

: «لا جديد غير الحزن المترسب في الروح ، أخرج من وجع الخليقة لأدخل في طينتي المعجونة بكِ ، فأحزن» !

كنت شاعرا يحمل في قصيدته أزمنة الكلام .

كنتُ في كل مرة أواجه ابتسامتك بتأملي ، لا يفوتني أن أقرأ فيها :

«تَمَلَّي مني ، فقد تكون الأخيرة» !

حينما أخبرني بمرافقته لأبي «حابس» في رحلة صيد غير

fb/mashro3pdf

معلنة ، لنا نحن نساء بيته ، لا أدري لم لبسني القلق فجأة !

ربما لأنها المرة الأولى .

وكان جليًا أنني ما كنت أقلق على أبي «حابس» رغم ترحاله المستمر ، بل إنه كان يزورنا لفترات قصيرة خاطفة حافلة بأجمل العطايا ، بعد كل رحلة مجهولة التفاصيل ، يمسح على شعري بعد قبلة ، ليدُسَّ براحتي زجاجة لخلاصة عطر أو عقد زاهٍ من حجر كريم أو قطعة قماش ثقيلة النقوش ، ليعاود ترحاله/استمتاعه من جديد .

لا أدري متى خططا «نذر» وأبي «حابس» لرحلة الصيد هذه . . ربما بعد ولادة صغيرنا .

هي المرة الأولى التي أخرج فيها لوداعه .

اعتاد / اعتدنا أن يتركنا قبيل الفجر ، نكونُ حينها نفترش زهوة أحلامنا .

حملتُ صغيري ورافقت «دليلة» إلى باب البيت . . وما كان «نذر» قادرًا على معانقتي أمام الكل ، اكتفى بالنزول قريبا مني لتقبيل «ابننا» وتلاقت العيون بلحظات مسروقة من فرحنا ، وربما قرأ «نذر» امتقاع لوني لذا طاله ما تحمل الروح ، فانسحب .

بانزوائها بقيت «عوجة» ، ساكنة حد الصمت ، تلاعب «وِرْد» بحركات من عينيها المبتسمتين بوهن ، تركت التعاويذ والقراءات وشحّت زيارات النساء الراغبات بالتطبيب ، وما عدت أسمع

fb/mashro3pdf

طلاسمها وتمتماتها . . كانت بعيدة وغامضة «عنّا» . . لكنها قريبة من «ابني» . . !

حينما جاءني محمولا ، ما كنت أدري لمن أوجه سؤالي/هذياني . . ربما كنت الوحيدة التي قفزت لتتحسسه بمخالب قطة !

باهتا كان جوابهم :

«طلقٌ ناريّ أصابه خطأ»

بتعبٍ ينعكس على وجهه تتدلى رجله اليمنى ، متألّما كان «نذر» ، فيما تلوح على شفتيه ابتسامته التي أعرفها ، يؤكد بها على الرجولة والقسوة النبيلة !

كان الوقت ليلاً . .

والظلمة تزيد الشحوب على الأشياء ، أدخلته «دليلة» غرفتها ، بينما أدلف أنا إلى حزن كبةٍ غبية لا أعرف سببها .

لمرةٍ أولى يشاطرني أبي «حابس» سهري وحزني ، بقينا في خوفنا الذي تسرّب إليّ منه ، هكذا حتى الصباح . . بعد صمت طال فسّر لي خوفه المتصاعد :

«أخشى أن نضطر لبترها»

قرأ عويلي الصامت الذي برق من عينيّ ، وبيده أشار لي أن أهدأ :

«فقط إذا لم تشف من جرحها . . سنفعل»

بقيت أدمعُ واشتعل ، أضيع فيه وأحسبه يضيع مني !

fb/mashro3pdf

أقترب من حجرتهما ، أتفقّد «روحي» ، و«ابني» ينوح مؤججًا اختناقي .

من بعيد وصلتني رائحة صارت غريبة .

على غير عادتها ، عاودت أمنا «عوجة» حرق حرملها ، من السطح نازلة متكئة على سنواتها السبعين ، يسبقها دخان أبيض وتعاويذ بنبرة عالية هذه المرة !

لاح بعينيها ، حينما تلاقينا ، وميض ابتسامة مليحة افتقدتها أيضا . .

ترى هل يشعرها العمل بأنها ما زالت بيننا ؟

ربما أجبرتها المصيبة على مزاولته . . خائفة على «نذر» كانت .

في الصباح الثالث ، فتحت عيني على نداء صارم :

«ســـهراب» !

وشعرت لوهلة بأنني في غرفتنا لصق مزرعة «نذر» ، غير أني تنبّهت على صوت أبي «حابس» المتسرّب بكل قوته يأمر بمباشرة الذبح .

لا أدري إن كان اسم «نذر» قد ألصق النذور به رغما عن كل شيء ، شفيت رجله لذا على أبي أن يوفي بنذره مع الله ، بتزويج عشرة من أبناء «النزلة» ، بليلة واحدة .

كنت فرحة لشفاء «نذر» ، وقلقة جدا لختان «وِرد» في الليلة نفسها!

fb/mashro3pdf

مشتّتةً كنت . .

مستندة على الحائط يلتصق خدي الأيمن ببرودته ، ودموع تنهمر دون توقّف ، كنت أحاول فتح نافذة عبر دمعي ، بين يدي «نذر» يصرخ صغيرنا بوجهه المحتقن ، كان الوضع مريعا ، جمع من رجال محتشدين للتهنئة ، فخذان بيضاوان ملطخان بالدم ، وصياح يزيد من عتمة صدري . . ما كنت قادرة على ضم «ورد» بين ذراعيّ ، ما كنت قادرة على الحضور أصلا .

أصوات الطبول تدق بتواتر يتصاعد ، وصوت «دليلة» متكئًا على التفاصيل يأتيني :

«بماذا يفترض على الأم أن تشعر ليلة ختان ابنها» ؟!

كانت قاسية كشمس آب .

أشعلت بخورها أمنا «عوجة» وظلّت تطوف به أركان البيت ، تستعيذ من الشيطان ومن العيون ، بينما أتأمل تداخل الأدخنة .

«سهراب» والصبيان يتراكضون يوزعون «التميمة» على بيوت «النزلة» ، الطبول تدق دون توقف ، ونداءات أبي «حابس» لا تنتهي هي الأخرى ، يعطي أوامره ويوزّع كرمه على الجميع . . التصقت بالنافذة أبحث بين الأيادي عن التماع ثوب «ورد» والزركشات التي خاطتها له جدته «عوجه» ، دموعه لاتزال نادية على خديه الأحمرين إثر البكاء . . يقبع بحاجبين معقودين بين ذراعي «نذر» ، ويثير فيّ شيئاً من الابتسام .

fb/mashro3pdf

«دليلة» كانت تضفر خيوطًا من لؤلؤ بشعرها ، بينما كنت أتمنى انتزاع آلام ابني علّي أهدأ وأستكين .

بانكسار ما طلبت منها ، ودون تفكير وافقت «دليلة» .

هل كان يجب أن استأذن ليكون «ورد» عندي؟

باستئذاني شعرتُ وكأنني دمية باهتة ، مكسورة ، بعينين مقلوعتين !

بأنين مزدوج ، عانقنا الليل «وردي» وأنا !

لخمسة أيامٍ بقي ابني عندي ، وجروحه كبراءة عينيه تلتئم ببطء يرهقه ويعذّبني .

fb/mashro3pdf

ترى هل كان كل شيء يسير نحو نصب الحزن ؟

راكضا جاءني يطرق بابنا .

هل كان خائفا ؟

بوجهه الأحب ، كان شاحبا هذه المرة ، صاح بي :

«مروانة ! إنها تجذف دما من الفجر»!

سقطت كأس الشاي من يدي ، كنت محملقة أستعيد كلماته ، ما ترك لي فرصة ، جذبني من ذراعي باتجاه بيته وبقيت خطوتي أقصر منه يثقلها عرجي !

انتشر نداء أمنا «عوجه» في الهواء خلفنا . . بقي صداه يتضخّم بداخلي أكثر :

«مروانة ، نذر . . مروانة ، نذر . .» !

حتى في ندائها كنا نحن !

يا للقدر .

لم أكن اعرف ماذا يتحتّم علي أن أفعل . .

اندفعت باتجاه غرفتها ، كان صوت بكاء مخنوق / خَجِل .

مسحت على شعرها بيدٍ مرتعشة ، كان كل ملمح بوجهها شاحبًا مستسلمًا لفقد الدم !

قلقا جاءها استفهامي :

«منذ متى» ؟

بانعطاف في صوتها قالت :

fb/mashro3pdf

«هل يمكن أن تضمينني بقوة» ؟!

تغلغلت في صدري أنفاسها الراجفة .

التفتُ .

كان «نذر» جالسا بقلقه على طرف الدرج ، عينان شاخصتان تحدقان في الفراغ ، تماما كما كان يدور رأسي في الخواء . . وبين يدي «دليلة» بنشيج يهزني .

صعقتني بصراحة صرت افتقدها :

«منذ جاءَك ورد» !

: «منذ أشهرٍ أربعة وما انتبهت على شحوبك الذي طال كل شيء»!

أغمضت عيني على أفق كل ما فيه بعيد وغامض ، كنت أمشي خلف ريح تحمل رائحة الفقد !

و «دليلة» مستلقية بوهن واضح ، ما كانت تشبه شيئا ، إلا نفسها ، غضة أحيانا ، قاسية أحيانًا أخرى .

كان ألمي بمرضها يصل إلى أطراف شعري ، كانت قوية/ عارمة تلك الأحداث المسماة بـ «الماضي» ، تحاصرني بتفاصيلها أينما اتجهت بيّ السبل!

***

تطعم «الحمام» شاردة الذهن كانت «عوجة» .

ودون أن تلتفت ، أطلقت سؤالها باتجاه صوت انسحاب رجلي :

«ما بالها» ؟

fb/mashro3pdf

: «تستفرغ منذ الفجر»

ولا أدري كيف ابتلعت باقي الكلام !

كابنة العشرين قفزت «عوجة» :

«طفل جديد»!

أغمضتُ عينيّ على فرحتها .

همستُ :

«لا بل إعياء» .

ما وددت أصارحها :

«همٌّ جديد»!

لأن صراحتي ستكون أشبه بندوب تنتشر في الوجه ، تسحب فرحتها لتهديها انكسارا آخر!

***

لا أعرف/نعرف كيف التقينا . .

لعلّه حلم تدفق من بين لحظاتنا ، حلم نُحِتَ على اللّوح ودلّنا على القدر ، أول الضياع !

يومها . .

حشرنا أنفسنا بمصير تجاوز كل اللامعقول ، كان تمرد يليق بجنوننا وبالدنيا !

حينما التقينا على حافة البئر . .

هل كنا نفهم لحظتها بأن أحلامنا تتشابه دون قصد ، وأن فرحنا ،

fb/mashro3pdf

الخَجِلْ ، صار فوق طاقة القلب ، وأننا حين رقصنا ، رقصنا وحيدين ؟

كان يجيد الاستماع لانهياري كأبٍ عطوف . .

يشاطرني الأرق تلك الليلة ، شكل بطولتنا الوحيد الذي يتلاءم مع مرض «دليلة» ، المخيف !

طازجا كان ألمنا .

لماذا نسهر في تلك الليلة ؟

هل نبحث عن نظام ما وسط هذه الفوضى ؟!

أحرق لفافته السابعة ، دون كلمة !

: «لن تقوى على رعاية الصغير ، سيكون عندي» .

: «لم لا تقولين وِرْد» ؟!

: «لا يشعرني بأمومتي»!

: «ألأنه اختيارها» !

تلك الليلة أحسسته يميل لها ، بصدق!

بينما يلبسني العداء تجاهها!

رمى بعقب لفافته ، ونزل برشاقة من حافة البئر ، تركني للسواد الهادئ . . ربما نسي أني أحتاج لمساعدته لتطأ قدمي الأرض!

اتكأتُ على ساقي الثانية ، ووحدتي ، ومضيت .

كان باب بيتهم موصدًا مثل كل الأبواب في تلك الساعة المتأخرة من الليل .

هناك وقفتُ بعد أن جاءني صوته هامسا بحذر :

fb/mashro3pdf

«مروانة ، «دليلة» نائمة ، لحظات وآتيك بـ ورد»

لا أدري أية قوة اجتاحتني ، فسحبته من ذراعه .

: «هل يثقلك وجودي في حياتك» !

اغتسل وجهه بدهشة صفراء ، مدّ يده باتجاه الباب حتى جعله مواربا ، اختفى خيط النور الذي كان يصبغ نصف ملامحه ، فاستحال المكان ظلاما .

«بأي الجنون تهذين» !

لا أدري أي الكلمات كنتُ أنتظر .

ربما كلمات ستغير شكل العالم ، فلا يعود كما كان .

كان حبي له خيانة لأختي . .

ولم يكن طعم الخيانة مرًا كما يشاع ، بل كان لها طعم الإثارة والغموض .

وكنت كلّما تضاعفت خيانتي لها يزداد إصراري عليه .

انعطف صوته محاولا تهدئتي ، فما وصلني سوى نشيج !

جلس على الأرض ، رفع طرف ثوبه يجفف به دمعه ، فيما استقرّت عيناي على جرح قدمه الغائر العمق ، كمحبته في قلبي .

تكوّرت إلى جانبه ، أقبّل قدميه . . ابتلع ريقه وهو يرفعني بقوته ، همس بعينين يملأهما الدمع :

«لا ملجأ ، يا فراشتي ، لمن أصابهم القدر غير فكرة القدر» !

***

fb/mashro3pdf

انتقلت «دليلة» عندنا . .

لتكون هي وصغيري بين يديّ ، تمضي الأيام ، يزداد شحوب «دليلة» بينما ينمو طفلي كحبة كرز تتضاعف حلاوة وامتلاء!

كنت أبقى إلى جانبها . . نثرثر كثيرا ، لينعطف صوتها فجأة تسألني عن «نذر» ، فلا أجد غير :

«رحل قبل ساعة ، كنتِ غافية»

وأتركها تحتضن وسادتها وتعبها ، تستنشق بخار ورق الغار مع أمنا «عوجة» ، وتسيل تعاويذها عابرة أذنيها لتنام من جديد . وأحتضن طفلي وأخرج باحثة عن هواء طيّب وتساؤلاتي دموع تنهمر :

«القريبون يكثرون الغياب لنألم بهم أكثر» !

وحده «سهراب» يشاطرني الضيق .

ووحدها الشيخة «غزوى» تحيا بعالمها الممتد ، التُّرْف المُريح .

يومها طرقت باب تعبنا ، تدعونا إلى حفل زواج ابنتها الصغرى ، ووحدها تعلم جيّدا مرض «دليلة» أُمّ حفيدها!

لا أدري إن كان التشنج الذي حلّ فجأة بأمنا «عوجة» كان إثر سوء حالة «دليلة» أم لـ لا مبالاة الشيخة «غزوى» . . كل ما أفهمه وحيدة ، أن هذه المرأة المسنة التي ربتني حتى ابْيَضّ حاجباها ترتجف كعذق نخلة ذاوٍ!

كنت شبه متجمدة ، كانت روحي سقيمة ، ففي كل غرفة ينزف شيء من قلبي .

fb/mashro3pdf

راكضة باتجاه مزرعته دون غطاء يسترني ، بل دون أن ألتفت لعرجي ، فتحت بابه مستنجدة :

«نذر» كن معي» !

حينما عدنا «نذر» وأنا كانت «العوجة» تستلقي على فرشتها ، مستندة بظهرها على الجدار ، بزرقة غريبة تلوّن شفتيها ، سألت :

«متى عدت من سفرك يا «نذر» ؟

ساد صمت لحظات قبل أن يهمس بتردد :

«منذ قليل»

أشارت لي أن أهبط إلى جانبها . . همست بتثاقل :

«يهمّك إرضائي» ؟

أفلَتُّ :

«طبعا» !

بعين شبه مغلقة أردفَتْ :

«فلا تفوّتي المشاركة بعرس «شمسة» شقيقة «نذر»» .

زفرتُ نفسا حارًا ، وأومأت بالطاعة .

بغرفتها التي بلون اخضرار التين ، تدس رأسها في حضني ، لا أدري إن كانت تهذي أم ترد على ثرثرتي ؟

ولا أعرف لم استذكرنا صديقات الطفولة . . «عوّاش» بفمها المتسع ذي الرائحة النتنة . . «وصال» وضفائرها الثلاث بشعر أجعد . . «موزة» تلك القصيرة المربوعة بساقين ممتلئتين . . عقد الفل الذي

fb/mashro3pdf

تصنعه لي «عوجة» يبقى يتدلى بزركشاته الحمر ، بطريقته الخاصة التي توائم ميلان خطوي !

كنا نلعب «الحجلة» واكتشفت أني غير قادرة على القفز كالباقيات ، حملت عرجي للبيت أبكي على صدر أمي «عوجة» ، همست لي :

«سيكون لكِ شيء مميز» !

ضحكنا بآلامٍ متجمعة . .

وحينما نصمت ، تظل أعيننا في لقاء حذر ، كنت أشعر بأن «دليلة» تحوم حول الحقائق بشكل ما .

fb/mashro3pdf

مطرقة الرأس وبفستان آذتني زركشاته ، شاركت الشيخة «غزوى» احتفالها بزواج «شمسة» آخر بناتها . . رحّبت بي فاسحةً المجال لي لأن أجلس على أقرب مقعد ، دائما تُظهِر تعاطفها المبالغ به مع عجزي أمام الكل!

مكتظة بالذهب ، يغلّف صدرها العريض عقد كبير ، وزركشات فستانها الكبير أيضا متداخلة بشكل يؤذي النظر .

على كرسي العروس كانت «شمسة» قابعة تحمل انكسارًا ما ، فحينما تلاقت نظراتنا صدفة سارعت إلى إغماض عينيها ، ربما أرادت إخفاء شيء حاول الظهور .

راقت لي عيناها اللتان أخذتا الشبه من «نذر» إلى حد كبير . .

في ظل تلك المعمعة ، ما سألت إحداهن عن «دليلة» ، ربما يحسبونها تباشر الضيفات في زاوية ما من البيت الكبير . . وحدها أصوات الطبول حاضرة وبقسوة فرضتها عليّ أمنا «عوجة»!

ما بال السواد يخيّم ؟

حينما انسحبت من صخب الزفاف ، تركت النسوة لفرحهن الكبير ، عدتُ بثوبٍ لامعٍ لا يليق بسكون بيتنا ، نزعت من رجليّ خلخالي الذهبي ، مسحت زينتي واستلقيت بهدوء يشبه الليل في «النزلة» على بياض فرشتي ، كنت أنا وصوت أنفاسي الرتيبة ، بينما يغط «وِرْدي» في لحافه الزاهي بفمٍ مدوّرٍ أشهى من سكّرة!

احتضنت قلبي وغفوت ، كنت متعبة حد السقوط في غياهب

fb/mashro3pdf

النعاس ، أغمضت على أفقٍ كل ما فيه رخيم وغامض .

وبدا لي أن «عوجة» قد نامت ليلتها نومتها الأخيرة !

جاءها الموت وابتسمت بتسليم وحزن ، حتى دون أن نشتم رائحة ذلك الزائر الأبغض .

حينما دلفت إلى غرفتها في أول الصباح على هديل حمامة رمادية قرب شباكها ، ناديتها ، كانت غائبة في سحر ما ، بقيت أتأملها علّها تفتح عينيها ، هززتها كثيرا ، لكن إغماضتها بدت هادئة جدا وحقيقية ، تأكدت أنها انتهت . . غابت حدقتاها في العمق/الموت . . ذلك الذي لا أستطيع وصفه أو فهمه!

الحزن بوابة الانكسار . .

لم يكن في عزائنا عويل لنساءٍ جئن ليتخففن من مصابهن الأليم .

وما كنت لأصرخ جزعا لفقدان «عوجة» ، تلك المرأة/الأم التي ربّتني بصرامة تشبهها .

كنّ فقط بعض نسوة اتشحن بالسواد الهادئ ، يملأن البيت بعيون تستقر في حجورهن بسكون ، وآثرت أنا أن أدّخر صراخي حتى الليل ، ذلك الذي جاءنا معبّأً بكل الأثقال .

ليلا ، كنت أراقب السماء من سطح منزلنا ، وكنت على ثقة من أن «العوجة» تبتعد في سماء «النزلة» رويدا رويدًا ، بابتسامتها التي

fb/mashro3pdf

تشبه التماع الفضة . .

هل كنتُ خائفة على «دليلة» ، لذا منعني قلقي من النوم تلك الليلة . . أم فقدي لـ أمنا «عوجة» . .؟

حينما نزلت قرب فرشتها الدافئة ، وحده الوجوم كان يصبغُ عينيها الذابلتين إثر الشحوب الذي ظل يمتص رحيقها بعد كل نوبة تعب .

زارنا «نذر» يلملم ارتباكنا الذي زاده رحيل «العوجة» ، حينما أرخت «دليلة» جفنيها وسحبها النوم إلى هوته البعيدة ، تبادلنا «نذر» وأنا حديثا تحاصره العتمة .

وددتُ لو أحكي له عن رؤياي ، عن تلك المرأة السمينة السوداء العارية التي زارتنا لتطهو تلك الوليمة ، التي دعانا إليها الشيخ «مصيوب» دون سبب !

كان حلما مخيفا ، ولا أدري إن كان تعبي سببا له !

انقضت الأيام الثلاثة للعزاء .

وبات أبي «حابس» ليلته عندنا ، كان صامتا بهيبته التي اشتقتها .

جاء إلى غرفتي طالبا أن يبيت «وردي» عنده ، حمله بين ذراعيه بوقاره الذي يميزه ومضى إلى حجرته بعدما رمى بسؤاله عن صحة «دليلة» ، تنهدت بإيماءة يعرفها . . تأكد حينها أنني صرت أتقن الحزن يوما بعد الآخر !

fb/mashro3pdf

وحده المجنون من يفضحه وجهه .

كنا كلنا نحتمي بوجوهنا المغلفة بألف قناع . . على إفطار خفيف تجمعنا لمرة أولى منذ سنوات .

أبي «حابس» على رأس الأسرة الصغيرة ، «دليلة» على يميني أجبرها على مضغ بضع لقيمات تسند بها تعبها ، «ورد» يبرك في حضن أبيه يشرب حليبا دافئا ويناغي بأنصاف كلمات لا يفهمها سواه .

هل كنا نتقن ارتداء الأقنعة في ذلك الصباح؟

أم كان كل منا يتفنن بانتزاع أسرار العيون؟

وحدها أصوات الأطباق كانت تتداخل مع كركرات الطفولة المشاغبة لـ«ورد» ، وربما لأن الموت ما يدفعنا بغتةً لاسترجاع ما تسرّب من بين أيدينا من اشتياق وفَقْدْ ، أطلقت سؤالي نحو أبي :

«لماذا لا تعرف أين دُفِنَتْ أمي» ؟!

هل كان امتقاع لون أبي بسبب السؤال الذي تجاوز هيبته دون استئذان ، أم لأني أطلقته نحوه دون خشية من لطمة ترد على وقاحتي!

صمتٌ لف الزمن قبل أن تنزلق دمعة على جلبابه الغامق ، لينهض مسرعا بعيدا عنا . . عرفتُ حينها بأني فتحت في صدره جرحا قديما ، مساويًا لعمري .

ربما كنتُ ندبة في حياة والديّ ، لكن من يفسّر لي تلك الأسرار

fb/mashro3pdf

التي تسكن عيني أبي «حابس» مذ كبرت؟ ذلك الارتباك الذي يشتد ، حتى بحياة أمنا «عوجة» ، حينما أتساءل عن أهل أمي؟

كان الجميع يتقن حياكة كل ما هو ضبابي بشأن بعض الحكايات القديمة ، كم من المرات تمنيت لو كنت أملك عصا موسى كي أفلق بحر شكّي!

كثيرًا كان يضجرني ولا يزال صمت «نذر» المرتبك في لحظات معينة ، نظرات الشيخة «غزوى» الممتلئة أسرارا ، بل حقائق مدببة وحادة بلا أدنى شك . تواري أمنا «عوجة» في غرفة بعيدة بعد أي سؤال / اقتحام قد أطلقه تجاهها بكل طفولتي التي أحمل . . سفر أبي «حابس» المستمر ذاك الذي ظل عصيًا على الفهم ، ومحرمًا على السؤال !

ربما وحدها «دليلة» شفافة حد الطهر .

إلى أين يقودني الطريق ؟

متعبة كنت حد الإشفاق على روحي .

مرت أيام وأبي «حابس» بعيد عني . . إنسان يتقن الغياب حتى وهو معي ، شعرت وكأن الجميع قد تضامنوا معه ، لذا كنت أحتاج إلى عزلة أهرب فيها حتى من ضيق رأسي الذي صار يضج بآلاف الاستفهامات المتداخلة ، نهر من خيبة كان يجتاحني!

fb/mashro3pdf

هربت إلى هناك . .

مزرعة «نذر» ، لملمت بعضا من حاجيات الصغير ، كنت هناك لأيام ، حيث طبيعة طاعنة بالسكون . سألني «سهراب» غير مكترث بتعبي :

«هل تعرفين أن الأشياء تحيا بنا وليس مع الزمن» ؟

: «لا أشك بذلك»

: «لم تصرين على نبش الحزن إذن» ؟

: «تقتلني الوحدة ، أليس من المفجع أن تحيا كل تلك السنوات دون تاريخ» ؟!

: «نذر» ألا يكفيك» ؟!

رغم يقيني بمعرفته بأمرنا بشكل ما ، لكن لا أدري أي نوع من الصفعات المؤلمة قد وجهها لي بسؤاله هذا !

كان لا صوت إلا خرير الماء وهديل حمامة بعيدة ، كركرات «ورد» الذي يعبث وحده بطرف الفراش . . عينا «سهراب» اللتان تنتظران الإجابة عن سؤال يزيد حرقتي .

تنهدتُ بعد أن دسست وجهي بين كفيّ ، وشعرت بأن ذاكرة الكلمات قد اختفت تماما . . كان فقط صدري يعلو ويهبط بحذر .

لم أشعر به يغادرني ، لكني فوجئت برائحة بُنٍ طازجة تغمر الغرفة ، بفنجانين ممتلئين بادرني «سهراب» ، بدأ يحكي عن موسم هجرة الطيور . . عن عمر شجرة النبق التي تظلل الجلسة الخارجية

fb/mashro3pdf

للمزرعة ، عن الشبه الكبير الذي يحمله «ورد» من أبيه . . ثم اجتاحه سكون غريب .

كنت أصغي فقط ، لذا بدا واضحًا صمته المفاجئ .

ابتسم وهو يرتشف قهوته . . سألني :

«لم تنصتين إليَّ بكل هذا الاهتمام» ؟

: «أرى فيك أبًا طيبًا»

ردّدَ بتفكّر ما :

«أبٌ طيّب» !

ولاحت سحابة من ضيق معجونة بابتسامة تهكّم ، أنهى فنجانه ، قَلَبَهْ وحرّكه بشكل دائري ، وتركه يجففه الهواء .

صفق كفه بالأخرى بتحفّز ما .

كنت أحاول قراءة عينيه الموغلتين بالغيب .

أقتربَ قائلاً :

«بنهار شديد البرودة ، أنهيت حياة ابنتي لأنها اختارت حبيبها . .»

تصاعد القَرْع المنتظم بداخلي ، وشعرت بأني مفرّغة من العمق .

وضع كفه يهدئ من قلقي .

: «لا تخافي ، كنت مخطئًا بلا شك ، فقد أجبرتها على الزواج من قريب لوالدتها ، غير أن القلب يختار ، وحينما عاندتني ، تنامى الشك تجاهها ، وعاجلتها ظنا مني بأني أواري فضيحة مفترضة» !

fb/mashro3pdf

: «قتلت ابنتك بيدك» ؟!

: «نعم ، أرأيتِ؟ لم أكن أبًا طيبًا كما تظنين . .!»

: «هل كانت مخطئة حقًا» ؟

: «أبدا ، بل كانت «شريفة» تحمل اسمها فعلا»!

: «مرَّ زمنٌ طويل» ؟

: «نعم ، ولولا أن فعلت ذلك لأصبحتُ جدًا لحفيد يكبر «وردا» بسنوات طويلة»

أخذ فنجانه من جديد ، بدأ يحدّق فيه ، طافت رائحة القهوة بأنفي ، وانقباض يعصرني . . دون أن ينظر إلي قال :

«بادلتك سرًا لا يعرفه سواي ، حان دورك»

: «كيف ؟ ألم يفتقد أهل النزلة ، شريفة» ؟!

: «بلى ، بالتأكيد ، افتقدوا تلك الفتاة التي تشعُّ بياضا ، وباتوا لَيلتهم يلعنون المرض الذي يباغت البشر ويسوقهم نحو آجالهم سريعًا»!

لا أدري لمَ كان يصرّ على أن يضيف فوق دهشتي دهشة ، ويراكم على أحزاني لوناً جديداً !

عاود التحديق بفنجانه ، سألته :

«ماذا تفعل» ؟

: «أقرأ خطوط فنجاني»

: «ماذا ترى» ؟

fb/mashro3pdf

: «عادةً ، أرى ما تعجز عيناي عن رؤيته ، وما يصعب على حدسي التنبؤ به»

: «وماذا الآن» ؟

: «بعد موتها ، صرت دوما أشعر بأن روحي معلّقة في الظلام ، حتى في كتل البن ، لا أقرأ سوى السواد» .

كان «سهراب» يتوجع ، كمن يود العبور إلى الحياة الأخرى ليلحق بعزيز . . بكيت كثيرا حتى نهرني :

«لماذا تبكين» !

: «أريد الهرب»

: «تعالجين هربا بآخر ، هذا خطأ كبير»

: «ما العمل إذا» ؟

: «لا تحاولي النبش في الماضي ، فكثير من الأمور إن أصررنا على الخوض فيها ، تسوؤنا بشكل كبير ، بل قد تقلب حياتنا إلى جحيم» .

: «لم لا تخبرني بالحقيقة» !

: «أمضيتُ عمري تحت جناح عشيرتكم ، فلا تجبريني على الإتيان بما لا أقوى عليه يا ابنتي ، ليس أقرب منكِ إلى «دليلة» ، لمَ تخفين سرّكِ الكبير عنها؟ كما ترين الحقيقة موجعة ولها نصل سكيّن» .

تركني ومشى بعيدا ، متخذاً ركنًا قصيًا تحت شجرة النبق ، لأبقى

fb/mashro3pdf

بأفكار تسحبني عبر دهاليز مظلمة لا يحدّها شيء .

***

عدتُ إلى بيتنا لأندس في غرفة «عوجة» ، شعرت بحنين بسطوة رهيبة لم أقدر على الصمود أمامها .

سحبت صندوق أمي «عوجة» من تحت فرشتها الكبيرة ، كانت تواريه في ذلك المكان إن باغتُها بدخولٍ عَجول ، وكنت أحترم رغبتها بإخفاء أسرارها الصغيرة ، رغم تحرّقي لمعرفة ما يضمه هذا الصندوق العتيق !

بيدين مرتعشتين كنت ألمسه ، أطوف على تضاريسه المدببة ، وما كنت أحمل أيُّ تصوّر لما قد أكتشفه بالداخل .

متيقنة من أن «عوجة» ترقبني من البعيد ، هل كنت أتطفّل على خصوصياتها؟

هل يحق لنا العبث بما ترك الراحلون ؟

هل كان عليّ أن أنادي «دليلة» لتشاركني نبش الأسرار ؟

فعلى الأقل «عوجة» أمها الحقيقية !

حسدتها ، فبإمكانها متى ما اشتاقت لرائحتها ، أن تفتح الصندوق وتبكي بصدق كبير . . لماذا يسيطر عليّ شوق كبير لأمي منذ رحلت «عوجة» ؟

سعال شديد شق الصمت .

fb/mashro3pdf

أتصوّر أحيانًا كثيرة أن حنجرة «دليلة» ستنشق يوما إثر نوبة سعال حادة !

مُقفلاً أعدتُ الصندوق إلى مكانه .

تنبهت على بكاء «ورد» . . أقفلت الباب على حمم الذكريات .

كان «نذر» يقبع قرب «دليلة» يدهن صدرها بزيت المشموم ، علّه يهدئ سعالها . ذاوية العينين تفتحهما بتعب ، سألتها :

«كيف تشعرين» ؟

أومأت برأسها ثم تبسّمت بوهن :

«أشتهي شاي النعناع المركّز بطريقة أمي»

معها طفر شوقي المفاجئ لـ «عوجة» ، أجبتها :

«الآن سنشربه معًا» !

حملت بوادر بكائي وهرعت صوب المطبخ ، اتكأت على قبضة الباب أنوح ، كنت أتلمس بنحيبي الضياع الذي نحياه!

«دليلة» كانت تستند بشكل أدخل الراحة إلى قلبي ، دخلت حاملة ثلاث كؤوس من شاي النعناع .

غادر «نذر» الغرفة قبل عودتي ، حتى إني لم أشعر بخروجه من البيت .

بيدٍ مرتجفة استلّت «دليلة» كأسها ، قالت بعين ساهمة في البعيد :

«اشتقت لأمي كثيرا ، ماذا يفعل المشتاق لمن رحلوا» ؟!

fb/mashro3pdf

ربما كانت الفرصة الوحيدة/المناسبة كي أكافئ «دليلة» بشيء يريحها ، يحلّ عقدة غموض يلبسني ، استأذنتها لدقيقة . وعائدة أسحب الصندوق الكبير همست لها :

«هنا ستجدين الكثير من أمّنا»!

بعينين ذابلتين قرأت بهما تساؤلا ، فأجبت :

«لم ألمسه ، لكِ كل الحق به» .

ابتسَمَتْ دون أن تشعر بشيء من طمأنينة ، أشارت أن أقرّبه منها .

كانت دقائق مهيبة تلك التي انتظرتها كي تفتح بها الصندوق الأحجية ، على الأقل كما أراه أنا !

دقائق معبّقة بالانتظار الوجل . .

هل الخوف ذاته كان يسكننا ، فأبينا إلا أن ننتظر قليلا ؟!

رائحة نفاذة استقبلت توجس حواسنا ، كانت أعشاب التطبيب المعتادة التي تسحقها حينما يمرض أحدنا ، علبٌ من قطيفة سوداء تحوي كسرات كبيرة من بخور متعدد الأنواع ، قطع قماش مختلفة الألوان مقطعة على شكل مثلثات يجمعها مشبك ذهبي ، عباءة رجالية مطوية بعناية فائقة ، مسبحة قديمة جدا ملفوفة بتنسيق خاص .

صاحت «دليلة» بوهن :

«طرحة زفافي»!

لا أدري لم كانت «عوجة» تحتفظ بطرحة «دليلة» في صندوقها

fb/mashro3pdf

الخاص ، ولا لمن يعود الحجلان الفضيان المربوطان بشريط أحمر ، لا أظنها كانت تخبئهما لي ، لأن عرجي سيظهر بشكل منفّر أكثر !

سحبت شيئا طرق باب الذاكرة ، قلادتي القديمة التي صنعتها «العوجة» عدت لها باكية لأنهن سخرن مني ، صنَعَتَها لأجلي وجعلتني مختلفة !

ولأنني طفلة ، نسيت أمر ضحكاتهن ، وعاودت اللعب معهن .

كنت أمعن النظر في قلادتي ، حتى نادتني «دليلة» .

: «بماذا تفكرين» ؟

: «كم كانت أمّكِ تحبني حتى احتفظت بقلادتي بصندوق أسرارها» ؟!

: «كنتِ دوما تقولين أمّنا يا مروانة فما بالك اليوم» ؟!

: «ماذا تعرفين عن أمي يا دليلة» ؟

: «لا أعرف أكثر منكِ ، لفترة قريبة كنت أحسب أن أمّنا مشتركة فعلا ، حتى أخبرتني أمي بالحقيقة ذات ليل ، احتضنتك ونمتِ دون أن تعرفي سببا لبكائي المضطرب» .

: «هل تظنين أن ثمة سرًا يخفيه الجميع عني» ؟

: «ما عساه يكون ، لا أظن ذلك ، فات من عمرك أكثر من اثنين وعشرين عاما ، فعن أي سرٍّ تتحدثين» ؟

تغوص يد «دليلة» في عمق الصندوق ، تمسك بطرف ملابس صغيرة الحجم ، تصيح بفرح طفولي :

fb/mashro3pdf

«مروانة ! ملابسنا ، انظري كم تتشابه !»

: «تتمنين العودة للطفولة» ؟

: «ليتنا نعود ، نمارس جنونا استعجلناه لنكبر ، ما كنا نعرف ما يخبئ لنا القدر من ألم» .

شعرت بصوت «دليلة» يخفت مع كل كلمة ، تأملتها كثيرا ، ومع عبارتها الأخيرة أوصلت إليَّ اكسارا موجعا ، حتى تعالى نشيجها بشكل وَضُحَتْ معه دقات قلبي ، كان حزنها المشوب بذنبٍ يجعلها تجفل من الخوض بحديث يشبهها ولا تريد له أن يتفرّع .

: «تتألمين يا دليلة» ؟

: «ما كنتُ حتى تزوّجتْ»

هبط قلبي فجأة .

لا أدري إلى أين كنا نصل في أحاديثنا ، وإلى أين كنا ، ربما بقصد ، نهرب من بعضنا . . تمدد صمتٌ سميك ، وشعرت بها تغزل كلمات من شوك بذاكرتها ، كنت كلّما همّت بالحديث ، أنسَحِبُ إلى الوراء !

: «يتعبُكِ أن يخفى عليكِ سرٌّ لأمك ، لكن يحرقني أن أعرف وأمثّل بلاهتي ، كم يخنق هذا الشعور» !

راودني إحساس بأنها ستحكي عن سرٌّ ثقيل . . رغم أنه لم يكن بيننا سوى هواء الغرفة كستار واهٍ ، إلا أننا ولسبب ما ، كانت كلتانا تتجنّب النظر إلى الأخرى .

كان كل ذلك الشك الذي يسكنها . .

fb/mashro3pdf

كل تلك الخطايا التي اقترفْتْ . .

بل كل تلك الأيام / الأحداث المزروعة بألف حكاية وحكاية .

كنتُ مرعوبة حدّ الاصفرار ، أبتلعُ جفاف ريقي .

: «لم يكن صعبا عليّ أن أعرف بعلاقتكما ، كما لم يكن سهلا عليّ الاحتفاظ بسرها وممارسة حياتي كأن شيئا لم يكن» !

: «دليـلة» !

أشارت بكفها لأصمت ، وأومأت بعينيها بمحبة غريبة كي تُكمل/تُعمل خنجرها بجرحي أكثر .

: «كنتِ تتوردين لأيام ، تبتعدين لأيام ، ويَنْحل هو ، أو يزهو بفرح رطب ، ويبتعد لساعات ليتحوّل لمزاج آخر ، هكذا أحوال العشّاق ، وما كنتُ لأعترض ، لأن اعتراضي لن يكون حلاً» .

أكمَلَتْ بعد صمت .

: «كنتُ عاجزة عن الإنجاب ، عن الاحتفاظ بالمشْيَخة والصيت ، لهذا كله كنت أتوق لطفلٍ حتى ولو كذبًا» !

كنتُ في تلك العُتمة أنصت متفكّرةً بسؤال واحد ظل يحوم منذ بدَأَتْ الحديث ، كيف استطاعت «دليلة» الاحتفاظ بكل تلك الأسرار بهذه القوة والصلابة !

انعطف صوتها :

«أشد ما كنتُ أخشاه أن تعرف أمي بأمركما ، أشفق على فرحها بي ، لذا حينما رَحَلَتْ ، هدأ جزءٌ من قلقي تجاهها» !

fb/mashro3pdf

بماذا كان يفترض أن أرد على صراحتها الحارقة ، كنت فقط أتأمل خطوط الحقيقة المطلّة من عينيها المتعبتين ، كانت تحكي بصلابة من يوّدع الدنيا بعد لحظات ، لذا كنتُ أحتقر ذاتي .

: «تحقدين عليّ» ؟

: «أبدًا ، بل أتفهّم كل ما مررتِ به تجاه «نذر» ، أتفهّم أننا بمراهقتنا استعجلنا اللهو وأعجبتنا فكرة الشباك وشقاوته دون أن نحسب لمشاعرنا حسابا ، كان طبيعيا أن نتعلّق بتلك (الدمية) التي تهدينا الفرح اللذيذ ، وكان يجب أن أفهم أن ذاك التعلّق سيقودنا إلى طرقٍ مسدودة بخراب» !

: «كثيرةٌ أنتِ . . كثيرة» !

: «لستُ كثيرة ، ولن أكون . . وأظن صار لي الحق أن أطلب شيئا لي ، وأن توافقي عليه» .

: «لكِ كليّ . . أسمعك» .

: «تزوجيه ، كي لا يضيع وِردْ» .

أطلقت صيحة تعبٍ زلزلت روحي .

نُحتُ كما لم أفعل من قبل ، شعرتُ بجسدي كقطعة قماش بالية تعبثُ بها الريح ، لطمتُ وجهي حتى أدميته ، «دليلة» بضعفها تلملمني حتى تكوّرت بحضنها كطفلة شارفت على الإغماء بعد كابوس أفجعها!

على أطراف روحي أمضيت تلك الليلة ، وحيدة في فراشي .

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

إيماءات بعيدة

أفتح عيني لأرقبه . . ما زال ساهما .

على حافة البئر/بئرنا نتكئ . . عرقٌ تفصّد على جبينه ، التمع مع الشمس الغاربة ، حينما سألته :

«هل كانت أمي جميلة» ؟

أمسك بيدي وكأنه أرخى جفني المثقل بالدمع لأبكي ، بقيت أنتظر جوابه ، حتى نطق :

«لِمَ تتذكرينها بكل هذا الشوق» ؟

ابتلعت ريقًا مرًا :

«ربما رحيل «عوجة» .

باغتني بنبرة جادة :

«عمّ تبحثين» !

لا أدري لِمَ وِجلتُ فجأة ، أنا التي كنتُ أتلمّس الحقيقة مهما كانت !

بصوت خفيض أجبته :

fb/mashro3pdf

«أريد كل ما لا أعرف» !

حينما أطلق تنهيدته ورحل بمقلتيه بعيدًا ، ازدادت رهبتي من المجهول ، وددت لو أغيّر مجرى الحديث ، تمنيت أن أفصح عن مخاوفي وأن أعلن له عن جُبْني وتفاهتي . . و . .

كان يرمي ببصره إلى نقطة تتجاوز المدى ، وتسيل العبارات بين شفتيه بقسوة محبٍ أعرفه :

«حينما يقسو الرجل على المرأة ، تبحث عن خلاصها ولا تفكّر بما سيكون»

صمت هو ، وكنت أقبض على معدتي .

: «خالتك الوحيدة (شاهه) أتعبها ظلم (صافي) لها فأضرمت النار به ، وابتلعته بدقائق قبل أن تهرب لتفتح دون قصد منها مساحات من شكٍ وحكايات لا تنتهي ، بقيت تلوكها أفواه أهل «النزلة» كلّما مرّ ذكر (شاهه) أو والدتك ، أو حتى أبوكِ «حابس» .!

غلّفنا الصمت دقائق طالت . .

نظر في عينيّ وقرأ دهشتي ، ضمّني بشدة ، وهمس لضعفي :

«ماذا تريدين أكثر» ؟

كنت أشعر بخواء يفرّغني حتى من الكلمات .

أتراه عار «خالتي» الذي التصق بنا فصار يسرق أبي مني بسفرٍ لا ينقطع !

كم من الشكوك حطّت على بيتنا لنكون ولسنوات بعيدين عن

fb/mashro3pdf

بيت عمي ، كبير وجهاء «النزلة» ، وكم من الحكايات لفّقت ضدّنا لنعيش ملثمين خوف افتضاح ذلك السرّ ؟

وضعت عيني بسواد عينيه . .

: «وأمي» ؟

: «رحلَتْ بعد ولادتك ، وبعد هرب (شاهه) بأيام» .

خبأتُ وجهي بكفيّ ، ونحيبي صار يعلو والظلام يهبط على الأشياء أكثر .

***

هل كان عليّ أن أحتفل بالخطوة الأولى لـ «ورد» ؟

حينما دخلت البيت بذبول كنت أحيا به ، وجدت «دليلة» تبتهج بصوت أرادته مرتفعًا :

«انظري! طفلي يخطو»

مسكينةٌ «دليلة» ، ما زالت تتقن دور الأمومة الزائفة تماما كما أتقن دور الطهر البتولي . . بثوبٍ أزرق كان «ابني» يحاول أن يخطو بارتباك يضحكه فيسيل لعابه دافئًا ، وبيدين ممدودتين للأمام أتى باتجاهي متمتمًا :

«أُمّا ، أُمّا» !

كنا نرد على ندائه نحن الاثنتان ، وفي القلب حسرة لا تحرق سوى «نذر» !

رغم ذلك كان فرحًا طازجًا يَغمر أرجاء البيت ، وأكثرنا احتفالا

fb/mashro3pdf

بخطوات «وِردْ» كـان أبي «حـابس» الذي أصـرّ على اصطحـابه إلى مجلس الرجال في ذاك المساء المرتبك جدا .

مبخر أمّنا «عوجة» يشتعل لمرة أولى مذ رحلتْ ، حبّات الحرمل المتفجرة ورائحتها أيقظت الكثير المختزن بداخلنا ، ووجدتني أيضا أعيد تعاويذها وهمهماتها التي صارت بعيدة .

كنتُ بتقليد ما أمرر ابني فوق المبخر وهو يركل الهواء بساقيه الممتلئتين ، يتصوّرني ألاعبه بنقلاتي المتواترة على جانبي الجمر ، خشوع اللحظات كان يضفي قدسية لا تضاهى ، فلا نسمع سوى تلك الفرقعات المهيبة .

وحدها «دليلة» بعد هبوط الليل ، تتقن مصارحتي ، ربما لأنها الوحيدة التي تتقن قراءة حزني بعده !

: «أشتهي طفولتنا» !

دون أن أتحرّك صححت لها :

«بل تشتهين طهرها» .

تساءلَتْ :

«طُـهر» ؟

: «نعم ، لهوٌ طفوليٌ دون معنى محدد»

: «بل كنتُ أعنيه! و ها أنا أدفع الثمن دون حساب»

كان صعبا جدا أن أجمع انفعالين في آن واحد ، حبي لـ «دليلة» وضآلتي أمامها .

fb/mashro3pdf

طرقٌ خفيضٌ على الباب .

وإلى الزاوية ذاتها انتقلت أعيننا . . بنصف جسدٍ دخل «نذر» مفسحًا المجال للشيخة «غزوى» برائحة عطرٍ نفاذ عبّقتْ أجواء غرفتنا ورنّات أساورها ، مسحت على رأس «دليلة» بسؤالها المشروخ :

«كيف حالك» ؟

فيما ردّت «دليلة» بإيماءة مثقلة بالوجع .

إلى حضنها رمت بصرّة متكوّرة مزركشة ، وبنصف ابتسامة :

«هذا الخلخال الذهبي للصغير ، فرحة خطوته»

اعتدلت «دليلة» بجلستها :

«تعيشين وتهدينه يا خالة»

بعينين واسعتين كانت تبحث بقرف عن مكان لتجلس فيه ، لكنها آثرت الوقوف ، ورمت قبل أن ترحل هامسة :

«كفيّ عن الدلع ، زوجك يحتاجك»

لوهلةٍ اشتهيت أن أفجّر انتفاخها بطرف حلقها المتدلّي من أذنها ، كم كانت تزورني في أحلامي / كوابيسي حينما تحاصرني الحمى ، أرى «غزوى» تنتفخ أكثر ، تظل تكبر وتكبر حتى تطير مثل بالون معلّقٍ بخيط مشدود بإصبعي الصغير ، أرتعبُ صائحةً :

«لا! غزوى ستنفجر!»

وأصحو على عرق يبللني واندهاش أمي «عوجه» وبسملتها !

تزامنت طرقعة لبانها مع استغفارها :

fb/mashro3pdf

«تصوّرن يا بنات ، كنت سأترك السلام أمانة لـ «عوجة» ، لا أتصورها تموت هكذا فجأة» !

مضت ستة أشهر على رحيلها . .

و لا تزال «غزوى» تتصنع فجيعتها ودهشتها ، لا أدري كيف يصرّون على أن الموت درس يجعلنا نعيد تأمل حياتنا من كل الزوايا .

نظراتنا المشتركة تجاه «نذر» الذي تقلّص ضيقا إثر الزيارة المسمومة لأمه «غزوى» ، شعرته يستعجلها للمغادرة ويشكر مجيئها وهديتها بتوتر ، واستسلمت «دليلة» لموجة سعال حادة لم تهدأ حتى الفجر .

منذ الفجر كانت رنّات حجليّ «ورد» تتبعني بخطوات متلاحقة ، كنت أزرع الحمّص بطبقات القطن الأبيض ، فأل خير لموسم ربيعي جديد ، يتأملني بطفولته الغضة ، وأنا أرص الأواني الفخاريّة على أطراف الشباك ، وأترك اسمًا لكل منا على آنيته ، وأحكي له .

هواء أوّل الصباح الطيّب يحرّك نهايات شعره الناعم ، فيرمش بتتابع مبتسمًا ، وكأنه يفهم ما أفعل وما أقول ، بإيماءة من يديه الصغيرتين يستفهم عن مكان أصيص : «أمّا دلّة» !

كما اعتدت أناديها (دلّة يا دليلة) .

بينما يناديني بـ «أمّا» .

ذكي ابني ، كأبيه .

fb/mashro3pdf

وصار يتقن الحركة المستمرة منذ خطّى وتحرر من أيادينا المسكة به طوال اليوم ، بل صرت أقرأ تعاسة «دليلة» لأنها ما عادت قادرة على ملاحقة خطواته الطفلة ، حينما يتقافز من بين يديها راكضا باتجاه شيء يثير انتباهه فيصرفه عنها ، بل كانت بعقل صغيرة تغضب وتتورّم ، تتصوّره يناكفها بابتعاده عنها .

بركن يخصه يجلس أبي «حابس» يشرب قهوة المساء ، حينما هبط المغرب وراح يشعل لفافة من تبغه ، قلت له :

«تعرفت على خالتي (شاهه) رغم اختفائها ، وصلني كل شيء تقريبا»

لم يحمل وجهه شعورًا محددًا ، غير أني لاحظت أصابعه وقد هرست لفافته لتطفئها سبابته وإبهامه دون ألم يُذكر . . حملتُ «وردًا» ومضيت باتجاه المزرعة!

ووحده كان السؤال ينخر طرف لساني :

«هل سينتهي ضياعي» ؟

هناك كان ينتظر «نذر» ، بجلسة أظنها امتدت مذ بدأت الشمس بالهبوط ، يجلس القرفصاء متأملا بما لا أعرف ، وحوله يتنقّل «سهراب» ، يطعم بط البركة بانهماك غريب .

حينما فطن لوجودي أسرع يهيئ المزيد من المقاعد ، فيما استلّ «نذر» ابنه من بين ذراعي بحب ، كان يقبّل شفتيه بنداوتهما ، بينما ماتت على شفتي كل الأسئلة .

***

fb/mashro3pdf

بزغ اخضرار على سطح الأواني الفخارية يبشّر بقدوم عيد الربيع ، على أطراف قدميه يقف «ورد» ليُطل على الوريقات الإبرية الخضراء ، وكأنه يتقن القراءة حينما يصحو معي فجرًا لأسقيها بالماء ، وبيده الصغيرة يشير مؤكدًا على الآنية التي تحمل اسمه ، ويتورّد فرحا بلمس سطحها المعبّق بالرطوبة ، اختطفه بعدها لأريه تلك الطقوس التي لا زالت محفورة بذاكرتي ، نصفّر للطيور المتراصة على حبال الغسيل ، نحتفظ بحلزونات الحديقة داخل علب صغيرة ، نصطاد الفراشات الملونة لتنثر كحلها بين أصابعنا . . . كنتُ أمارس طفولتي مع ابني في الخفاء ، أضحك متخففة من وطأة الحياة والخطيئة .

هل كنا نتشابه للدرجة التي تجعلنا نمارس جنون الطفولة بالنشوة ذاتها؟

لأيام طويلة ظلّت «دليلة» تصنع عرائس الصوف ، تفرز ألوان الخيوط والعصي الخشبية والقطن الأبيض ، تتشاغل بها طوال ساعات النهار . . بينما يلهو ابني معها ، يمرر الخيوط الصوفية الملونة من بين أصابع رجليها ويثرثر بأنصاف كلمات وهي لا تضجر ولا تمل .

خلال عشرة أيام ، كانت العشرات من بنات الصوف تتناثر في غرفتها ، يصنع منها طفلي قطارًا يمتد من الباب حتى فرشتها ، بينما تستغرق «دليلة» بصنع المزيد دون ملل .

وجدت أن علاقتي بـ «دليلة» قد اختلفت .

تعاظمت الهوة في حياتنا / علاقتنا اليومية ، لذا شعرت في تلك

fb/mashro3pdf

الليلة بتوق لأن نتشارك حجرتنا / أسرّتنا ، بل كنت أشتاق للإنصات لأنفاسها كما كنت أفعل بطفولتنا ، أردت اقتسام اللحاف بيننا وإحياء الخواء من حولنا .

ربما كنت اطمح لأن أظلّ دوما متعلقة بنسخة مني لـتشاركني الحياة .

بابتعادها/ ابتعادي ، كان العالم يتباعد ويبهت . . لذا تلك الليلة وضعت السؤال على حافة القلب ومنتصف العقل ، وكنت متهيئة للآتي بكل ما يتجسّد به ويتأكّد .

وها هي «دليلة» تطلب وتطالب بزواجنا ، كانت بإلحاحها كمن يُلحّ عليه الوجع ولا يئن !

كنت أريد معرفة كل تلك الإجابات / الحقائق المسوسة بغور ما في ذلك الرأس ، أسندت رأسها بوهن إلى وسادتها البيضاء ، وهمست قبل أن تغمض :

«لا تخضعي الأمر لتفكير كثير ، سيقتلك التردد» !

تصوّرت عينيّ أبي «حابس» وهما تنفتحان عميقا بوجهي دهشة!

فهاجمتني زخّة دمع حارقة . .

ترى هل سينسحب أبي «حابس» عن العالم إثر طلب / حقيقة كهذه ؟ وماذا سيدور برأس هذا الرجل القوي الذي اعتاد أن يكتسح الليل والنهار والناس كما يكتسح المسافات ولا يرضى بغير التعب والتجوال والسفر!

fb/mashro3pdf

كنت قد قررت بدايةً ، أن أُسلّم هذه المهمة الأصعب لـ «نذر» ، فأنصاف الرجال يكونون عادةً أكثر طلاقةً / تعبيرًا عن رغباتهم تجاه الغير من الرجال الكاملين .

غفوت على قلقي . .

وافتتحت تلك الليلة بحلم عميق ، كوجعي .

كان السدّ بيننا يتهاوى ، تضربه مياه غير صافية من كل ناحية لينهار ويظهر لي جسدها الذاوي بشكل أوضح في كل مرة ، تبتسم وتبكي بتواتر ، وهكذا .

كان الماء عنيفا ، يضرب قاعدة هيكل السدّ بيننا ، وأصرخ بصوت مشروخ

: «لـماذا» !

ويأتيني الجواب من شيخ بلحية بيضاء ناصعة :

«لأنكِ معلّقة بقطرة ماء بوسع هذا الكون»

وصلتني إجابته تلك واستدار ناحيتها يتمتم بين عينيها الفزعتين ، وكأنه يلقّنها الآيات والتراتيل لتبكي مثل طفلة ، والماء يضربنا نحن الثلاثة .

شعرت بعيني الشيخ تمسحني بتعاطف ، بينما يطيّب قلبها بتراتيله ، لحظات وتلاشى ظلّه ، وبقيت أنا أحدّق في بقاياه .

حينما أرجعت بصري تجاهها ، كانت هناك وحيدة تصلّي في الفسحة الضيقة أمام مدخل يشبه بيتنا ، وعلى سجادة «العوجة»

fb/mashro3pdf

الخضراء المزركشة الأطراف ، صحوت وعبارة بصوتها واضحة/معلقة بطرف لساني :

«لا تشربي من أثري ولا تتبعيني»

كنتُ دوما أضحك من عبارة «دليلة» تلك ، حينما تأخذ رشفة من كأسي ، عادتها تلك تثير شهيتي لمناكفتها بحيث تستفزها لتقول :

«أشرب من أثرك فأتبعك»

تبسّمت لهذه الذكرى التي طفت فجأة على سطح ذاكرتي المتعبة .

نظرت إليها بعد أن طردت آثار النعاس عن عينيّ ، كانت تصنع المزيد من عرائس الصوف بانهماك صار يخيفني ! كان وجهها ينطق بأسئلة كثيرة رغم صمتها القاسي وتركيزها الجاد بخيوط الصوف والقطن المتناثر حولها ، صار إلى جانبها المئات من العرائس بألوان مختلفة ، وأحجام تتشابه يدهشني إتقانها رغم السرعة في الانتهاء من كل قطعة .

تيار أنين جديد قطع نشوة مراقبتها ، إلى غرفتي لحقت بصغيري الذي أيقظه البلل ، ظلّ الحلم يتراءى لي بينما أعتني بتهيئة «ورد» ، وحينما حوّلت نظري إلى الشباك ، استوقفني القمر !

fb/mashro3pdf

حينما كنّا ننام على سطح البيت ، أمعن نظري في القمر ، كنت وبتساؤلاتي الطفولية التي لا تنتهي التي تثير حنق «عوجة» ، ليأتيني جوابها كدعوة أخرى لتساؤلات جديدة :

«القمر ضحكة الشمس في الليل»

وأترك لخيالي العنان لأن يسافر بعيدا عن سطحنا ، وأرى الشمس مثل امرأة فاتنة ، تبتسم بحدة نهارًا وتخفت ابتسامتها ليلاً لتكون أكثر إثارة وغموضاً .

رفعت «وردًا» الذي شعرت به يتململ بحواسه ، إلى الشباك :

«هذا القمر يا حبيبي»

ويزداد اقترابه من الشباك متمليًا ، في انعكاس صورته ، تعالت ضحكاته المتقطّعة ، ارتشفت لعابه مع قبلاتي له . . مضينا نحو الأواني الفخارية ، كنت لا أزال أحمله بينما أتلمّس الأوراق الصغيرة النامية بنداوتها أول الفجر ، أنزلت ابني وحضّرت شاي النعناع المركّز لـ «دليلة» ، بعد صرير الباب دخل «نذر» ، رمى بسلامه عليّ ، شعرت بردًا وسلامًا قد حطا في بقعة من صدري حتى إني مضيت نحو المطبخ ، وكنت بانهماكي أعود لتلمسهما بين حين وآخر ، فأستشعر شيئا من طمأنينة .

حينما صارحت «نذر» ذات مساء برغبة «دليلة» الصادقة بزواجنا لم يستغرب ، ولم ألمح طيف انزعاج ، بل كان قلبه محصناً ومفتوحاً على الاحتمالات!

fb/mashro3pdf

ابتسم بنداوة فقط ، ابتسامته تلك التي تحمل مذاق المسك .

دخل «نذر» إلى المطبخ ، جاورني ليطلّ على إبريق شاي النعناع ، وهو يفور ، تبادلنا ابتسامة متوجسة ، وكان بعض صمت ، لولا دفع ابننا الآنية الفخارية لتسقط مهشمة وتخدش ابتسامتنا .

دمعٌ تجمّع بعينيّ صغيرنا وهو يتقافز فزعًا بصوت باكٍ :

«دلــّة دلــّة» !

كانت آنيتها .

حمل «نذر» كأس شاي النعناع لـ «دليلة» ، بينما بقيت أجمع بقايا الأصيص من بين دموع صغيري الذي صرت أقبّل خوفه . . وبرأسي يعتمل قراري .

سأترك المهمة لـ «نذر» ، لأنني كنت ولا أزال تلك البنت التي خرجت من محيطٍ لا يبيح لها القفز في الهواء ، خصوصا ناحية القلب!

بعد غدٍ سيأتي أبي . .

بنصف رجلٍ وامرأةٍ كاملة وطفل ، سنقول له الكثير .

حملت ابني ببعض طمأنينة ، دخلت حجرة «دليلة» تغمرها رائحة النعناع الطازج ، كانت مستلقية بهدوء تام تحيط بها مئات من عرائس الصوف ، تفرش سجادة «عوجة» الخضراء المزركشة على مخدتها البيضاء ، أسفل رأسها ، و«نذر» يحيطها بملامح جامدة ، يتأملها بخشوع قاسٍ ، كأنه يلقّنها التراتيل والآيات .

انتهت في ٢٧ / ديسمبر/٢٠٠٥

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

السيرة الذاتية

* ميس خالد العثمان .
* كاتبة من الكويت .
* عضو رابطة الأدباء في الكويت .
* خريجة قسم الإعلام و الاتصال ، جامعة الكويت ١٩٩٩-٢٠٠٠ .
* لها مجموعة قصصية بعنوان (عبث) ٢٠٠١ .
* لها مجموعة قصصية بعنوان (أشياؤها الصغيرة) ٢٠٠٣ .
* لها رواية بعنوان (غرفة السماء) ، صادرة عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر ٢٠٠٤ .
* مستشار تحرير في مجلة (جهات) / السعودية .
* محرر في (جريدة الفنون) الصادرة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب-الكويت .
* شاركت بعدة أمسيات فردية داخل الكويت وخارجها .

fb/mashro3pdf

العنوان البريدي لـ ميس خالد العثمان

السرة ص . ب ٨٨٥

الرمزي البريدي ٤٥٧٠٩

الكويت

العنوان الالكتروني

Nccal77@yahoo.com

fb/mashro3pdf

WOOLEN DOLLS

رواية
NOVEL

الطبعة الثانية

ميس خالد العثمان

عرائس الصوف

◆ في تلك الظهيرة ، صفراء كانت ، وكنت محروقةً من الداخل . وددت أن أصرخ فيهتزّ الكون ، لكنّي ما وجدت سوى رماد صرختي !

مثل طفلةٍ تاهت في زحامٍ ما ، كنت أنوح .. ووصلني هاتفٌ بعيد :

« ليس عارُكِ وحدكِ » !

◆

ISBN 978-9953-36-157-6

9 789953 361574

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بيروت، الصنايع، بناية عيد بن سالم، ص.ب: ٥٤٦٠-١١
ماتفاكس: ٧٥١٤٣٨/٧٥٢٣٠٨
http://www.airpbooks.com

fb/mashro3pdf